من أسرار التعريف والتنكير
في سورة الشورى
دراسة بلاغية تحليلية

إعداد

د / صلاح حبيب سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان ، ثم جعل معجزة نبيه الخاتم ﷺ القرآن ، فأحكم نظمه ، وأوضح بيانه ، وأودعه من الأسرار والدقائق ما أعجز العرب عن الإتيان ولو بسورة من مثله .

وأصلى وأسلم على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه وسار على دربه إلى يوم الدين .

وبعد

فإن أساليب التعريف والتنكير من الأساليب التي تجاهلها البحث البلاغي الحديث، إذ لم يتعرض لها . فيما أعلم . بدراسة مستقلة تحاول الوقوف على أسرار التعبير بهذه الأساليب في نص من النصوص ، على الرغم مما لهذه الأساليب من الدلالات والإيحاءات الخاصة التي تخدم السياق ، والتي تأخذ بعقولنا إلى التأمل فيما تتمتع به الصياغة من تنويع وتلوين يزيد من حسنها وجمالها .

ولعل أمر هذا التجاهل يرجع إلى قرب هذه الأساليب من علم النحو ، مع أن قربها هذا لا يعني فراغها من المعاني والدلالات البلاغية التي تقربها من علم البلاغة أيضاً ؛ ولذلك تناولها البلاغيون القدامى ضمن دراسة أحوال جزأي الجملة في الإسناد الخبري ، وأشاروا إلى كثير من الأسرار البلاغية لتعريف وتنكير المسند إليه والمسند .

ولا يخفى أن البلاغة عامة - وليس التعريف والتنكير فقط - على

اتصال وثيق بعلم النحو ، إذ لا يصل إلى المعاني الخفية التي تضمرها النصوص إلا من كان له دراية كاملة ووعي تام بمواقع الكلمات داخل هذه النصوص ، وقد نوَّهَ الإمام عبد القاهر - رحمه الله - بهذا حينما خص النحو بحديث مستفيض ربط فيه بينه وبين البلاغة ، وجعل الزهد فيه وإصغاره أشبه بالصدِّ عن كتاب الله عز وجل ، يقول رحمه الله : " وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له ، وإصغارهم أمره ، وتهاونهم به ، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم (١) ، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله ، وعن معرفة معانيه ، ذلك لأنهم لا يجدون بدّاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه"(٢) .

وكما يقول أستاذنا د/ محمد محمد أبو موسى : " نعم قد يشوب هذا الدرس شئ من البحث النحوي ، ولكنا لا نرى ضيراً في هذا ؛لأننا إذا أردنا أن نستشف ما وراء هذه الأدوات من المعاني فإنه من الضروري أن نطرق هذه الأصول النحوية ولكن لنتجاوزها، لا لنقف عندها(٣).

ومن هنا كان توجهي بهذا البحث نحو دراسة أساليب التعريف والتنكير

---

(١) يعني بـ (الذي تقدم) ما أشار إليه قبل هذا النص من تصغير الناس زمانه أمر دراسة الشعر .

(٢) راجع : دلائل الإعجاز ص٢٨ تحقيق الشيخ / محمود محمد شاكر ط: دار المدني بجدة ـ ط: ثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية. لأستاذنا د/ محمد محمد أبو موسى ص٣٠٢ نشر: مكتبة وهبة ـ القاهرة ط: ثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

في سورة (الشورى) دراسة بلاغية تحليلية تحاول الوقوف على بعض أسرار التعريف والتنكير في هذه السورة الكريمة .

وقد دفعني لاختيار هذه السورة من بين سور القرآن الكريم كثرة الأسئلة التي تدور حول سر تنكير (إناثاً) وتعريف (الذكور) في قوله تعالى فيها : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ . بالإضافة إلى كثرة أساليب التعريف والتنكير وتنوعها في هذه السورة الكريمة .

ومنهجي في هذا البحث يمضي على تقسيم السورة الكريمة إلى مقاصد وأغراض ، فذكر آيات كل مقصد ، فشرح هذه الآيات شرحاً موجزاً ، ثم يأتي التحليل البلاغي لأسرار التعريف والتنكير في هذه الآيات .

وقد قدَّمتُ لهذا البحث بمقدمة وتمهيد عن السورة ، عرَّفتُ فيه بالسورة الكريمة من حيث ترتيبها في المصحف الشريف ، وعدد آياتها ، والموضوعات التي تشتمل عليها ، وسبب تسميتها بهذا الاسم ، ومنا سبتها لسورة (فصلت) قبلها ، وبدؤها بـ (حم . عسق) وآراء العلماء في هذا البدء ونظائره من السور الأخرى .

وأعقبت البحث بخاتمة تحدثت فيها عن أهم النتائج التي توصلت إليها، من خلال هذه الدراسة ، ثم بفهرس بأهم مصادر البحث ومراجعه .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١)

---

(١) سورة هود الآية : ٨٨ .

تمهيد

جاءت سورة الشورى في ترتيب المصحف الشريف بين سورتي" فصلت" و" الزخرف" ونزلت بعد " فصلت" ، وعدد آياتها ثلاث وخمسون آية ، وهى سورة مكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة : (الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء)ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، ثم تأتى سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة .

فهي تبتدئ بتقرير مصدر الوحي والرسالة ، وأنهما من رب العالمين الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين ، والذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده ، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور الهداية والإيمان .

ثم تعرض السورة لحالة بعض المشركين ونسبتهم لله الذرية والولد ،وأن هذا أمر يجعل السماوات السبع تكاد يتفطرن من شدة هوله ، ثم تعرض لتسبيح الملأ الأعلى لله عزَّ وجلَّ واستغفارهم لمن في الأرض .

ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة ، فتقرر أن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد ، وهو الإسلام الذي بعث به نوحاً وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ... ﴾الآية.

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن المكذبين بالقرآن ، المنكرين للبعث والجزاء ، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرؤوس ، وتزلزل من هوله الأفئدة ، بينما هم في الدنيا يهزأون ويسخرون ويستعجلون قيام الساعة.

وبعد أن تحدثت السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور الذي هو

أثر من آثار صنع الله وحكمته وقدرته ؛ تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفجأهم ذلك اليوم العصيب .

ثم تختتم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن كما بدأت به؛ليتناسق الكلام في البدء والختام .

ومقصود هذه السورة الكريمة الاجتماع على الدين الذي أساسه الإيمان ، وأم دعائمه الصلاة ، وروح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لكون أهل الدين كلهم فيه سواء،كما أنهم في العبودية لشارعه سواء ، وأعظم نافع في ذلك الإنفاق والمؤاساة فيما في اليد ، والعفو والصفح عن المسيئ ، والإذعان للحق في الخضوع للآمر الحق وإن صعب وشق ، وذلك كله الداعي إليه هذا الكتاب الذي هو روح جسد هذا الدين المعبر عما دعا إليه من محاسن الأعمال وشرائف الخلال بالصراط المستقيم[1].

وقد سميت بهذا الاسم تنويهاً بمكان الشورى في الإسلام ، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل"منهج الشورى" لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع[2].قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

مناسبة السورة لما قبلها :

قال أبو حيان ــ رحمه الله ــ في مناسبة هذه السورة لسورة " فصلت" قبلها: " ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها أنه قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي تخريج / عبد الرازق غالب المهدى٦/٥٩٣ . ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م.صفوة التفاسير للشيخ/محمد على الصابونى٣/١٢٢ وما بعدها.ط: دار الصابونى. بدون تاريخ.بتصرف .

(٢) صفوة التفاسير ٣/ ١٢٢ .

ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [1] وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كفروا به ، قال هنا : ﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل الإيحاء السابق في القرآن الذي كفر به هؤلاء ، ﴿ يوحي إليك ﴾ : أي إن وحيه تعالى إليك متصل غير منقطع، يتعهد له وقتاً بعد وقت "[2].

بدء السورة بالحروف المقطعة وأقوال العلماء في ذلك :

بدأت سورة الشورى بحروف مقطعة كما بدأ غيرها من سور القرآن الكريم، غير أنها تختلف عن أخواتها المماثلات أنها الوحيدة من بينهن التي شكلت فيها الحروف المقطعة آيتين، حيث جاءت الحاء والميم في آية ، والعين والسين والقاف في آية أخرى ، بينما وقعت مثل هذه الحروف فيما شابه هذه السورة في آية واحدة، وقد علل البيضاوي ـ رحمه الله ـ لهذا بقوله : " لعله اسمان للسورة ؛ ولذلك فصل بينهما وعُدَّا آيتين ، وإن كانا اسماً واحداً فالفصل ليطابق سائر الحواميم"[3] .

وجدير بالإشارة أن ابتداء بعض سور القرآن الكريم بهذه الطريقة كان محط اهتمام الرعيل الأول من علماء الأمة ، فما أن بدأ التأليف في تفسير القرآن الكريم وبيان سر إعجازه ، إلا وقد اتجه علماء هذا المجال إلى البحث عن سر هذه الابتداءات فيه ، وما تلوح به من مقاصد ، وقد ذكروا في ذلك أقوالاً كثيرة قد تتقارب وقد تتباعد .

---

(١) سورة فصلت آية : ٥٢ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٧/٧ ط : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط / ثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

(٣) راجع : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣٢٩/٨ ضبط وتخريج الشيخ /عبد الرزاق المهدي . ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط: أولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

يقول ابن قتيبة ت٢٧٦هـ رحمه الله : " قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة ، فكان بعضهم يجعلها أسماء للسور ، تعرف كل سورة بما افتتحت به منها، وبعضهم يجعلها أقساماً ، وبعضهم يجعلها حروفاً مأخوذة من صفات الله تعالى، يجتمع بها في المفتتح الواحد صفات كثيرة، كقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في (كهيعص) : إن الكاف من كاف، والهاء من هاد ، واليـاء من حكيم، والعين من عليم ، والصاد من صادق .

فإن كانت أسماء ، فهي أعلام تدل على ما تدل عليه الأسماء من أعيان الأشياء وتفرق بينها ، وإن كانت أقساماً ، فيجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ أقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها ، وإنما أقسم الله بحروف المعجم ، لشرفها وفضلها ، لأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة ، ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وأصول كلام الأمم ، بها يتعارفون ، ويذكرون الله ويوحدونه .

وإن كانت حروفاً مأخوذة من صفات الله ، فهذا فن من اختصار العرب ، وقلما تفعل العرب شيئاً في الكلام المتصل الكثير إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع[1]" .

ويؤيد الزمخشري ـ ت ٥٣٨هـ رحمه الله ـ كون هذه الحروف أسماء للسور التي افتتحت بها ، ويعلل لافتتاح السور بها وكتابتها مفردة على هذه الهيئة، بأن هذا كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم [2] .

أما الرازي ـ ت ٦٠٤هـ رحمه الله ـ فيرى أن الحديث في ذلك يعد ضرباً

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٩٩ وما بعدها .شرح / السيد أحمد صقر . ط: دار التراث . القاهرة . ط/ ثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م . بتصرف .

(٢) راجع الكشاف ٢٩/١ شرح وضبط / يوسف الحمادى .نشر : مكتبة مصر ـ بدون تاريخ .

من المجازفات وفتحاً لباب التأويلات ، لذلك نراه يفوض علم ذلك إلى الله تعالى فيقول : " واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولى أن يفوض علمها إلى الله "[1] . ويتبعه في ذلك أبو حيان في البحر المحيط [2].

وأما ضياء الدين بن الأثير ـ ت ٦٣٧هـ رحمه الله ـ فيرى أن الابتداء بهذه الحروف يستميل السمع ويستصغي الآذان ، يقول : " يبعث على الاستماع إليه لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه " [3] .

وقيل : إن " حم عسق " جبل قاف ، وقيل غير ذلك[4]. والله أعلم .

وبعد هذه الوقفة القصيرة مع السورة الكريمة إليك بعضاً مما تزخر به أساليب التعريف والتنكير فيها من إيحاءات وأسرار .

---

(١) راجع : التفسير الكبير للرازى مجلد ١٤ ج٢٧ /١٤٢ . ط: دار الفكر ـ بيروت ـ ط : أولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

(٢) راجع رأى أبى حيان في البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ .

(٣) راجع : المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ٢/ ٢١٠ . تحقيق الشيخ / كامل محمد محمد عويضة ـ ط : دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط/ أولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

(٤) راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ١٥ . ط : البابي الحلبي . ط : رابعة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

البدء بتقرير مصدر الوحي
والنعي على المشركين اتخاذهم أولياء من دون الله

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ
ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا
ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾
فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ
فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

بدأت السورة الكريمة ـ كما أشرنا ـ بحروف متفرقة ، وهى الحاء والميم ، والعين والسين والقاف ، وبعدها انتقل النظم الكريم إلى بيان حقيقة الوحي وتقرير مصدره ، وأنه مماثل لما أوحاه الله تعالى إلى رسله السابقين .

وقيل: إن (حم . عسق) أوحيت إلى كل نبي بعث، كما أوحيت إلى نبينا ﷺ ، ولذلك قيل : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ في انتقامه من أعدائه

(الحَكِيمُ) في تدبيره خلقه[1] .

ثم تقرر الآيات انفراد الله عزَّ وجلَّ بملكوت السماوات والأرض ، وأنه تعالى عليٌّ على كل شئ ، عظيمٌ ، لا يمانع في إرادة ، ولا يسأل عن خلق ، والأشياء كلها دونه لأنهم في سلطانه ، جارية عليهم قدرته ، ماضية فيهم مشيئته .

ثم تنعي الآيات على الذين اتخذوا من دونه أولياء صنيعهم ، وتتوعدهم بأن الله تعالى هو الحفيظ عليهم يحصى أفعالهم ، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة.

ثم تعود الآيات لتقرير مصدر الوحي والرسالة مرة أخرى مع بيان الغاية التي أرادها الله تعالى من نبيه ﷺ بهذا الوحي ، وهى غاية عامة قصدت من كل نبي ، تتمثل في دعوة الناس إلى التوحيد ، وإنذارهم عقاب الله في يوم الجمع الذي لا مراء فيه ، مع بشارة المؤمنين منهم بالجنة ، ووعيد المكذبين المعاندين بالنار والسعير .

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة وجمعهم على الهداية والإيمان ، ولكنه سبحانه اقتضت إرادته أن يتولى المؤمنين ويدخلهم في رحمته ، ويدع الظالمين الصادين ليس لهم وليٌّ من دونه يتولاهم ، ولا نصيرٌ ينصرهم من عقابه ، فهو وحده سبحانه الولي المنفرد بالبعث والإحياء والقدرة .

ثم توجه الآيات المؤمنين إلى المنهج القويم الذي يجب أن ينتهجوه إذا اختلفوا فيما بينهم أو مع غيرهم في أمر من الأمور ، وهو رد حكم ذلك الأمر إلى خالق السماوات والأرض مقدر الأمور ورب كل شئ وهو بكل شئ عليم .

---

(١) راجع : جامع البيان ٦/٢٥ .

أسرار التعريف والتنكير

إذا تأملنا أساليب التعريف والتنكير في هذه الآيات الكريمة ، وجدنا أن كل لفظة فيها جاءت نكرة أو معرفة ، إنما جاءت على هذه الهيئة لتشكل لبنة في بناء المعنى ، ولتقوم بوظيفة دلالية لا تقوم بها أختها لو حلت محلها .

فالتعريف بالإشارة في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ ﴾ جاء على هذه الصيغة التي يشار بها للبعيد للإيحاء ببعد المشار إليه وعلو مكانته، والمشار إليه هنا هو قوله تعالى في صدر السورة (حم،عسق) أو مطلق الوحي ، والكاف في (كذلك) بمعنى مثل ، والمعنى : مثل الكتاب المسمى بـ (حم،عسق) يوحي الله إليك كما أوحى إلى الذين ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني ، وإيحاء مثل إيحائها ، قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، وإنما ذكر الوحي بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إيحاء مثله عادة [1].

أو هو من باب التغليب ــ وهو الأرجح ــ كما ذكر الشهاب رحمه الله [2].

والمماثلة هنا في الدعوة إلى التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وتقبيح أحوال الدنيا ، والترغيب في التوجه إلى الآخرة [3] .

فلما كان الوحي أمراً عظيماً ، وما تضمنه أمراً عظيماً كذلك ، ناسبه أن يشار إليه بما يشار به للبعيد ، تنويهاً ولفتاً إليه ، وإبعاداً له عن أن يكون من قول البشر.

---

(١) راجع : الكشاف ٤/ ١٢٢ . والتفسير الكبير ٢٧ / ١٤٣ . وتفسير البيضاوى بحاشية الشيخ زاده ٧ / ٤٠٣ ، ضبط / محمد عبد القادر شاهين . ط : دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م . وتفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٢٩/٨ وما بعدها .

(٢) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٣٠/٨.

(٣) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٤٣ .

والمقصود بالموصول في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ هم الرسل الذين أوحى الله تعالى إليهم مثل هذا الوحي الذي أوحاه إلى نبينا ﷺ .

وتعريفهم بالموصول (الذين) يتناسب مع علمه ﷺ بهم ، وبأحوالهم مع قومهم ، وما لا قوه منهم من صد وعناد .

وصلة الموصول (من قبلك) تقرر صفة القبلية لهم، وتشير إلى أنه ﷺ امتداد لهم في دعوتهم إلى توحيد الله ، وما أوحى الله إليه هو نفس ما أوحاه إليهم ولم يكن بدعاً منه .

وقد أفاد التعريف بـ (ما) الموصولة في قوله تعالى ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ العموم والإحاطة، إذ كل ما في السماوات وما في الأرض داخل في ملك الله تعالى، واقع تحت قدرته وإرادته سبحانه .

أما تعريف طرفي الإسناد في ختام الآية : (وهو العلي العظيم) فقد أفاد قصر صفتي العلو والعظمة عليه سبحانه قصراً حقيقياً تحقيقياً ، يثبت بطريق مؤكد هاتين الصفتين لله تعالى وينفيهما عما سواه ، وهذا مطابق للواقع .

غير أن الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ يرى أن القصر هنا قصر قلب ، يعكس ما كان يعتقده المشركون في آلهتهم من السمو والعظمة، يقول : " وأفادت صيغة الجملة معنى القصر ، أي لا علي ولا عظيم غيره،لأن مَن عداه لا يخلو عن افتقار إليه فلا علوَّ له ولا عظمة ، وهذا قصر قلب ، أي دون آلهتكم فلا علو لها كما تزعمون "[1] .

وحمل القصر على أنه حقيقي وجعل النفي فيه عاماً يشمل هذه الآلهة وغيرها، أنسب للسياق الذي لم يرد فيه ذكر لهذه الآلهة حتى يتوجه النفي إليها خاصة .

---

(١) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٥ / ٢٩ . الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .

والجملة بعدُ تذييل مقرر لمضمون التذييل السابق (العزيز الحكيم) لأن من اتصف بالعلاء والعظمة لو لم يكن عزيزاً لتخلف علاؤهُ وعظمتُـه، ولا يكـون إلا حكيماً ، لأن عَلاءه يقتضي سموّه عن سفاسف الصفات والأفعال ، ولو لـم يكـن عظيماً لتعلقت إرادته بسفاسف الأمور ولتنازل إلى عبث الفعال[1] .

وقد اختلف المفسرون في دلالة التعريف بالموصـول فـي قولـه تعـالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ على العموم ، فالزمخشري ـ ت٥٣٨هـ رحمه الله ـ يرى جواز دلالته على العموم المخصص بقوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي عموم جنس المؤمنين التائبين ، ويرى جواز دلالته على العموم المطلق، أي : عموم جنس أهل الأرض ، وذلك إذا حمل الاستغفار على معنى الحلم وعدم الانتقام ، يقول رحمه الله : " قوله : ﴿ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم، فيجوز أن يراد به هذا وهذا ، وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون، فما أراد الله إلا إياهم، ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[2] وحكايته عنهم : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾[3] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم فكيف للكفرة ؟! ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران ـ كما ـ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[4] وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو

---

(١) راجع : المرجع السابق الصفحة ذاتها .

(٢) سورة غافر من الآية : ٧ .

(٣) سورة غافر من الآية : ٧ .

(٤) سورة فاطر من الآية : ٤١ .

مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾[1] والمراد الحلم عنهم ، وألا يعاجلهم بالانتقام،فيكون عاماً "[2] .

فهو يرى أن الاستغفار إذا كان بمعناه الحقيقي ، وهو طلب التجاوز عن السيئات ، فالعموم المفاد من الموصول وصلته مخصص بما ذكر في سورة غافر : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتكون هذه الآية قرينة تصرف الذهن إلى أن المقصود بـ ﴿ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ هم المؤمنون التائبون .

وإذا كان الاستغفار بمعنى طلب الحلم وعدم الانتقام ، فدلالة الموصول وصلته هي العموم ، واستغفار الملائكة يشمل عامة من في الأرض من مؤمن وكافر .

وتبعه في ذلك الرازي ـ ت : ٦٠٤هـ رحمه الله ـ غير أنه يرى صحة تقدير مضاف قبل اسم الموصول ، وهذا المضاف إما أن يكون لفظ (كل) الدال على العموم ، وإما أن يكون لفظ (بعض) الدال على الجزئية ، وعليه يصح أن يقال : إنهم يستغفرون لكل من في الأرض ، وأن يقال : إنهم يستغفرون لبعض من في الأرض [3] .

وقد توسع البيضاوي ـ ت٦٨٥هـ رحمه الله ـ في معنى الاستغفار، فجوز حمله على معنى السعي فيما يتطلب المغفرة ، أو يتطلب دفع الخلل المتوقع ، وحمله على معنى الشفاعة ، يقول:"﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة ، وذلك في الجملة يعم المؤمن والكافر ، بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان ، بل الجماد ، وحيث خص بالمؤمنين فالمراد به

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٦ .

(٢) راجع : الكشاف ٤/١٢٣ : ١٢٤ .

(٣) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٤٦ .

الشفاعة "[1] .

فهو يجوز عموم الموصول بحمل الاستغفار على معنى السعي فيما يتطلب المغفرة أو السعي فيما يتطلب دفع الخلل ، وخصوصه بالمؤمنين إذا حمل الاستغفار على معنى الشفاعة .

أما أبو حيان ــ ت ٧٥٤هـ ــ رحمه الله ــ فقد نقل أن الاستغفار في الآية عام، ومعناه طلب الهداية المؤدية إلى المغفرة ، كأنهم يقولون : اللهم اهد أهل الأرض ، فاغفر لهم [2] .

وعليه فالموصول وصلته دالان على العموم .

ولا يخفى أن حمل الاستغفار على معنى طلب العلم وعدم الانتقام، وحمله على معنى السعي فيما يتطلب المغفرة ، أو السعي فيما يدفع الخلل، وكذلك حمله على طلب الهداية المؤدية إلى المغفرة ، كل ذلك من قبيل المجاز المرسل بعلاقة المسببية، حيث عبر بالمسبب (طلب المغفرة) وأريد السبب ، وهو ما يتطلب المغفرة من دفع الخلل أو الهداية أو غير ذلك .

وتختتم الآية بالتذييل : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المؤكد لمضمون جملة : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض﴾ وجئ به مؤكداً بـ (إن) واسمية الجملة المشتملة على طريق القصر بتعريف طرفي الإسناد ، المسند إليه (الله) والمسند ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وبينهما ضمير الفصل (هو) المؤكد لأسلوب القصر ، ليزداد التذييل توكيداً وتقريراً لثبوت المغفرة والرحمة لله تعالى ونفيهما عمن سواه .

والقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف ، حيث قصر صفتي المغفرة والرحمة على الله سبحانه ، قصراً حقيقياً مبنياً على المبالغة ، إذ المنفي عنه

---

(١) راجع تفسير البيضاوى بحاشية الشيخ زاده ٤٠٥/٧ .

(٢) راجع : البحر المحيط ٥٠٨/٧ .

هاتان الصفتان عام ، وغير الله من خلقه يغفر ويرحم ، ولكن لا يعتد بمغفرته ورحمته تجاه مغفرة ورحمة الخالق جلَّ وعلا، يقول البيضاوي ـ ت٦٨٥هـ ـ رحمه الله ـ: " إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظ من رحمته "[١] .

ونشير هنا إلى أن الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ جعل القصر في هذه الجملة من قبيل قصر القلب كما فعل بالقصر في الجملة السابقة: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وجعل القصر هنا مفاداً من ضمير الفصل ، وليس من تعريف الطرفين ، يقول رحمه الله : " وجملة ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تذييل لجملة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ لإبطال وهم المشركين أن شركاءهم يشفعون لهم، ولذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل"[٢] .

والصواب ـ والله أعلم ـ أن القصر في مثل هذا الأسلوب من قبيل القصر الحقيقي المبنى على المبالغة ، حيث لا يوجد ذكر لشركاء المشركين في السياق ، وهو مفاد من تعريف الطرفين ، أما ضمير الفصل في هذا الأسلوب فقد أفاد توكيد القصر "[٣] .

وفي الآية التالية : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يأتي التعريف بالموصولية ، والتركيز هنا على جملة الصلة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ لأنها تشير إلى وجه بناء الخبر ، وأنه سيأتي إنذاراً شديداً ووعيداً مرجفاً لمن اتخذ من دون الله ولياً ، وقد جاء الخبر كذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إذ

---

(١) راجع : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣٣٣/٨.

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٤ .

(٣) راجع : في إفادة ضمير الفصل في مثل هذا الأسلوب توكيد القصر : أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية لأستاذنا د / صبّاح دراز ص١٣٥ . مطبعة الأمانة . ط : الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

معناه ــ كما ذكر الزمخشري رحمه الله ــ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء ، وهو محاسبهم عليها ، ومعاقبهم ، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ، ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد بموكل بهم ، ولا مفوض إليك أمرهم ، ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب[1] .وهذا في غاية الإنذار والتخويف .

وقد اشتملت جملة الصلة على أسلوب التنكير في ﴿ أولياء ﴾ وهو تنكير يفيد التحقير ، وقد يفيد الكثرة مع التحقير ، تناسباً مع واقع أوليائهم وشركائهم من دون الله .

أما الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ... ﴾ فقد زخرت بالعديد من أساليب التعريف والتنكير ، حيث طالعنا النظم الكريم فيها بأسلوب التعريف بالإشارة (وكذلك) والإشارة هنا كالإشارة في صدر السورة : ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ ﴾ وهى معطوفة عليها ، إلا أن الإشارة هنا إلى مضمون الآية السابقة : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾، يقول الزمخشري رحمه الله: " وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها : من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم ، وما أنت برقيب عليهم ، ولكن نذير لهم ... ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ، أي : ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك "[2] . وتبعه في ذلك الفخر الرازي رحمه الله [3] .

بينما جعل البقاعي ــ ت٨٨٥هـ ــ رحمه الله المشار إليه هو قوله تعالى : (حم ، عسق) ، يقول : " أي ومثل ذلك الإيحاء الذي قدمنا أنّا حبوناك به من

---

(١) راجع : الكشاف ٤/١٢٤ .

(٢) راجع: الكشاف ٤/ ١٢٤ : ١٢٥ .

(٣) راجع: التفسير الكبير ٢٧ / ١٤٨ .

وحي الإشارة بالحروف المقطعة ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[1] .

وأياً ما كان المشار إليه في النظم الكريم ، فإن الإشارة هنا كالإشارة في ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ ... ﴾ تفيد تعظيم شأن المشار إليه ، وعلو منزلته ، وبعده عن أن يكون إلاَّ وحياً من عند الله .

ثم يأتي التنكير في ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليفيد تعظيم وتفخيم شأن ما أوحاه الله إلى نبيه عليه الصلاة والسلام .

ثم يأتي التعريف بالإضافة في (أم القرى) تشريفاً لمكة ، وتكريماً لها، لأنها هي المقصودة بـ (أم القرى) يقول الرازي رحمه الله :" سميت بهذا الاسم إجلالاً لها ؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه ، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان"[2].

وكأن مكة هي الأصل الذي منه تفرعت القرى حولها ، أو كأنها الأم لمن حولها من البشر ، وأصل التركيب : لتنذر أهل أم القرى ، فحذف المضاف على حد قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] ، أو أطلق المحل وأريد الحال فيه بطريق المجاز المرسل ، بعلاقة المحلية ، ولذلك عطف عليه (ومن حولها) بالتعريف بـ (من) الموصولة التي تستخدم للعقلاء ، وقد دلت هنا على العموم ، إشارة إلى عموم الرسالة والإنذار .

ثم يأتي التعريف بالإضافة أيضاً في (يوم الجمع) ليثير في النفوس من الرهبة والفزع ما لا يمكن أن يثيره أي أسلوب آخر ، وسمي يوم القيامة بيوم الجمع؛ لأنه يجمع فيه بين الأرواح والأجساد، أو يجمع فيه بين كل عامل وعمله،

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/ ٦٠٢ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٤٨ .

(٣) سورة يوسف من الآية : ٢٨ .

أو يجمع فيه بين الظالم والمظلوم،أو يجمع فيه بين أهل الأرض وأهل السماء[1] .

ثم تأتي جملة الحال أو الاستئناف: (لا ريب فيه) بالتنكير في (ريب) قطعاً لأدنى شك أو ريبة تحوم حول وقوع يوم الجمع ومجيئه .

ثم تبين الآية انقسام الناس حينما يصرفون بعد ذلك الجمع إلى مأواهم قسمين : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ بتنكير المسند إليه فيهما، تنكيراً يفيد التعظيم في جانب أهل الجنة ، والتحقير في جانب أهل السعير، أو يفيد بمعونة ما ورد في السنة التقليل في الأول ، والتكثير في الثاني ، فقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ . فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ . قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ.... »[2] .

وقد سوغ الابتداء بالنكرة هنا وقوعها ــ كما يقول الشهاب رحمه الله ــ في سياق التفصيل والتقسيم[3].

ويرى البيضاوي ــ رحمه الله ــ في أحد رأييه جواز كون (فريق) خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير : المجموعون فريق في الجنة وفريق في السعير ، وجواز كونه مبتدأ ، وما بعده خبر له[4] .

ولا يخفى أن اللام في (الجنة والسعير) عهدية ، وأن العهد فيهما ذهني

---

(١) راجع : الكشاف ٤/ ١٢٥ ، والتفسير الكبير ٢٧ / ١٤٨ ، وتفسير البيضاوي بحاشية الشيخ زادة ٤٠٧/٧ ، والبحر المحيط ٧/ ٥٠٩ .

(٢) راجع : الحديث في صحيح البخاري ك : أحاديث الأنبياء ، ب : قِصَّةِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ رقم ٣٣٤٨ ص٦٩٩ ك : تفسير القرآن. ب:{ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى}. رقم: ٤٧٤١ ص٩٩٣ . تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد. نشر : مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م. وراجعه في صحيح مسلم بشرح النووي . ك : الإيمان ب : يقول الله لآدم أخرج بعث النار رقم : ٣٧٩ . نشر : مكتبة الإيمان بالمنصورة بدون تاريخ .

(٣) راجع: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٣٤/٨ .

(٤) راجع : تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٣٤/٨ .

لعدم سبق ذكر للفظ .

وفي الآية التالية : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ يأتى تنكير المفعول الثانى لـ (جعل) للدلالة على الإفراد ، أى : ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة مهتديةً ، ثم تؤكد هذه الدلالة بالوصف (واحدة) ، والمعنى : ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى ويجعلهم على ملة واحدة لفعل[1] .

أو كما ذكر الزمخشري رحمه الله : ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان ، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم، وبنى أمرهم على ما يختارون ، ليدخل المؤمنين في رحمته[2] .

ثم يأتي تعريف المفعول بالموصولية في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ لإفادة العموم المقيد بمشيئة الله تعالى ، والمقصود به المؤمنون الذين هداهم الله واتبعوا رسالاته ، وجملة الصلة (يشاء) تدل على أن الله تعالى هو الذي أدخلهم في الإيمان والطاعة[3]. والتعريف بالإضافة في (رحمته) يفيد تعظيم المضاف وتفخيمه .

أما تعريف (الظالمون) باللام في قوله تعالى : ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فاللام فيه جنسية أفادت دخول جنس الظالمين في الحكم المذكور بعده ، وهو نفي الولي والنصير عنهم ، ويرى الألوسي ـ ت ١٢٧٠هـ رحمه الله ـ في أحد قوليه أنها عهدية ، وأن الاسم الظاهر هنا وضع موضع الضمير من : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ فهو كالتعليل للنهى

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٥ / ٨ .

(٢) راجع : الكشاف ٤/١٢٥ .

(٣) راجع التفسير الكبير ٢٧/١٤٩ .

عن شدة حرصه ﷺ على إيمانهم، فالظالمون مظهر أقيم مقام ضمير المتخذين ليفيد أن ظلمهم علة لما بعده ، أو هو للجنس ويتناولهم تناولاً أولياً ، وعدل عن الظاهر إلى ما في النظم الجليل ، إذ الكلام في الإنذار وهو أبلغ في تخويفهم ، لإشعاره بأن كونهم في العذاب أمر مفروغ منه ، وإنما الكلام في أنه بعد تحتمه هل لهم من يخلصهم بالدفع أو الرفع ؟ فإذا نفى ذلك علم أنهم في عذاب لا خلاص منه[1] .

فاللام في (الظالمون) عهدية ، والاسم الظاهر وضع موضع الضمير (هم) العائد على ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ﴾ و ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ نهى بطريق الكناية عن شدة حرصه – عليه الصلاة والسلام – على هدايتهم، ولو جرى النظم الشريف على مقتضى الظاهر لكانت الصياغة: والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظٌ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ... ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدةً ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، وهم ما لهم من الله من ولي ولا نصير .

لكن جئ بالظاهر بدلاً من الضمير تعليلاً لنهيه – عليه الصلاة والسلام – عن شدة حرصه على إيمانهم ، وكأنه قيل : لا تحرص على إيمانهم لأنهم ظالمون ليس لهم من دون الله ولي ولا نصير .

ويجوز أن تكون اللام جنسية ، وعندئذ يدخل المتخذون من دون الله أولياء في جنس الظالمين دخولاً أولياً .

ونرى أن حمل اللام هنا على الجنسية أولى ؛ ليدخل في الحكم المتخذون من دون الله أولياء وغيرهم ممن وصفوا بأنهم ظالمون .

والملاحظ في جملة الحكم على الظالمين: ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

احتشاد الأسلوب لنفي أدنى شئ من جنس الولاة والناصرين عنهم ، فقد جئ بـ (ولى ونصير) منكرين في سياق النفي، مسبوقين بـ (من) الوصلة ، زيادة

---

(١) راجع : روح المعاني للألوسي ٢٥ / ١٥ ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ .

في تأكيد النفي، واستقصاء لجنس الولي والنصير، فقد أفاد التنكير في هذا الأسلوب العموم،وأفادت الزيادة توكيد هذا العموم[1] .

وفي الآية التالية : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يأتي تنكير المفعول (أولياء) ليفيد الكثرة اتساقاً مع كثرة ما كان يتخذه المشركون من دون الله أولياء .

ثم يأتي تعريف طرفي الإسناد في : ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ ليفيد قصر صفة الولاية الحقة على الله تعالى ، وينفيها عن آلهة المشركين، قصراً إضافياً تحقيقياً، يؤكد ــ بطريق بليغ ــ وحدانية الله عز وجل وتفرده بالولاية الحقة ، وقد توسط ضمير الفصل بين الطرفين ليزيد أسلوب القصر تأكيداً وتقوية ، والأسلوب يشبه من هذه الناحية الأسلوب السابق : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقد سلك النظم الشريف طريق التعريف بالإضمار في ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ليتناسب مع مقام الغيبة الذي جرى عليه نسق الأسلوب في هذه الآية والآية قبلها .

وتقديم الضمير (هو) على الخبر الفعلي (يحي)أفاد الاختصاص والقصر ، حيث قصر صفة إحياء الموتى على الله تعالى ، ونفاها عن آلهة المشركين التي اتخذوها أولياء من دونه ، فالقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً ، والمعنى : أنه تعالى هو وحده القادر على إحياء الموتى وليس أولياؤكم .

ولا يخفى أن في تقديم الضمير في هذا الأسلوب تنبيهاً للمخاطب ولفتاً له إلى

---

(١) راجع في إفادة زيادة (من) في مثل هذا الأسلوب التوكيد : مغنى اللبيب لابن هشام ٣٥٣/١ . تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ، ط: المكتبة العصرية ــ بيروت ــ ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م .

الخبر المسوق بعد ، فإذا ما جاء الخبر دخل على القلب ـ كما يقول عبد القاهر رحمه الله ـ دخول المأنوس به ، وقبله قبول المتهيئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق [1] .

ثم يأتي التنكير في جملة ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لإفادة العموم ، إذ كل الأشياء خاضعة لقدرته تعالى ، منقادة لها ، كائنة بها ، والجملة مع الجملة قبلها تذييل يؤكد قصر الولاية الحقة على الله تعالى ، إذ المعنى ـ كما ذكره الزمخشري رحمه الله ـ ومن شأن هذا الولي أنه ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ وأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء[2] .

ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ... ﴾ بمثابة الحكاية على لسان الرسول ﷺ للمؤمنين ، والخطاب فيه عام لكل المؤمنين في كل زمان ، وإذا كان الخطاب كذلك ، كان فيه إشارة إلى عموم الخبر ، أو الإشارة إلى أن الأمر جدير بأن يكون ذائعاً ، وأنه لا يختص بمخاطب دون مخاطب [3] .

وعلى هذا فرد حكم الشئ المختلف فيه إلى الله تعالى أمر عام يجب على المسلمين ، أو يجب على من يبلغه هذا الخطاب من المسلمين في كل زمان ومكان.

و (ما) في الآية الكريمة اسم نكرة بمعنى: أي شئ ، يفيد العموم ، و(من شئ) بيان لما في (ما) من إبهام ، والمعنى:أي شئ اختلفتم فيه ، والتنكير في (شئ) للعموم والإبهام ، وسبقه بـ (من) زاد العموم وأكده ، وجعله أكثر

---

(١) راجع : دلائل الإعجاز للشيخ /عبد القاهر الجرجاني ص١٣٢.

(٢) راجع الكشاف ١٢٦/٤ .

(٣) راجع : مفتاح العلوم للسكاكي ص١٨٠ ضبط / نعيم زرزور ، ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط : أولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ، وشروح التلخيص ٢٩٠/١ وما بعدها . ط: دار الإرشاد الإسلامي ـ بيروت ـ بدون تاريخ ، وخصائص التراكيب لأستاذنا د/ محمد محمد أبو موسى ص١٩٣ نشر : مكتبة وهبة ، ط: خامسة ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م .

اتساعاً واستغراقاً ، ليكون رد الحكم فيما اختلف فيه إلى الله شاملاً لكل أمر من أمور الدين والدنيا .

وبعد هذا التنكير يأتي تعريف المسند إليه بالإشارة (ذلكم الله ربى) تعظيماً للمشار إليه سبحانه " وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسموّ وشرف القدْر ، أي ذلكم الله العظيمُ ، ويُتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه ، فالمعنى : الله العظيم في حكمه هُو ربّي الذي توكلت عليه[1] .

ونشير هنا إلى أن عز الدين بن عبد السلام ــ رحمه الله ــ قد لمح في الإشارة إلى الذات العلية بما شار به للبعيد ملمحاً طيباً ، وهو الإشارة إلى بعد الذات وبعد الصفات عن المشابهة والمماثلة ، يقول : " والمراد به بعد ذاته عن مشابهة الذوات ، وبعد صفاته عن مماثلة الصفات "[2] .

ونلمح في هذه الجملة القرآنية تشريفاً للنبي ﷺ بطريق الإضافة في (ربى) ، والإضافة هنا إلى لفظ (رب) بما توحيه الكلمة من معاني الربوبية والتعهد والرعاية ، أي ذلكم الإله الواحد هو ربى الذي يتعهدني ويرعاني،فعليه أتوكل، وإليه أنيب .

وإذا ما تأملنا هذه الجملة الشريفة وجدناها قد اشتملت ــ على وجازتها ــ على ثلاث طرق من طرق التعريف ، وهى التعريف بالإشارة في (ذلكم) ، والتعريف بالعلمية في لفظ الجلالة (الله) والتعريف بالإضافة في (ربى) .

وقد أشرنا إلى بعض الأسرار البلاغية التي يُلَوِّحُ بها الأسلوب من خلال التعريف بالإشارة والتعريف بالإضافة ، ونشير هنا إلى أن التعريف بالعلمية في هذا السياق لإحضار المسند إليه في ذهن السامع قبل الحكم بالمسند (ربى) تقريراً وتأكيداً للألوهية والربوبية والولاية الحقة له سبحانه ، فهو الإله الحق ،

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٤٢ .

(٢) راجع : الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد السلام ص٤٤٣ تحقيق د / محمد مصطفى بن الحاج . نشر : كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي ــ طرابلس ــ ط : أولى ١٤٠١ ــ ١٩٩٢م .

والرب الحق ، والولي الحق ، والحكم العدل الذي يرجع إلى شرعه فيما اختلف فيه من أمر، لذلك فإليه وحده أدعو ، وإليه وحده أرجع .

وفي الآية التالية ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ يأتى التنكير في ﴿ أزواجاً ﴾ ليدل على الكثرة ، دلالة تتلاءم مع واقع التناسل في الناس والأنعام، و﴿ من أنفسكم﴾: أي من جنس أنفسكم ، أي آدميات ،﴿ أزواجاً ﴾ : إناثاً ، أو جعل لأبيكم آدم من ضلعه حواء زوجاً له[1] .

واللام في (الأنعام) للعهد ، والعهد هنا ذهني ، وخصها النظم الكريم بالذكر؛ لأنها أكثر أنواع الحيوان نفعاً للإنسان ، و (يذرؤكم) يكثركم ، وأصل الذرء : الإظهار ، ومعنى ذرأ الله الخلق : أظهرهم بالإيجاد بعد العدم[2] .

وضمير المفعول فيه راجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل[3] ، وعرف بضمير المخاطب لأن المقام مقام خطاب ، والخطاب هنا أعم من الخطاب في ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ لأنه يشمل جنس بنى آدم ، وذاك خاص بالمؤمنين ، وعموم الخطاب هنا متناسب مع عموم الذرء .

والضمير في (فيه) يرجع إلى التدبير ، وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل[4] .

وتنكير (شئ) في سياق النفى﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أفاد العموم ، أى ليس كمثله سبحانه أى شئ ، وقد جاءت هذه الجملة بعد ذكر الأزواج لنفى المثلية عن

---

(١) راجع : البحر المحيط ٧/ ٥١٠ .

(٢) راجع : الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص١٤٤ . تحقيق / عماد ذكى البارودى ـ نشر : المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون تاريخ .

(٣) راجع : الكشاف ٤/ ١٢٦ ، والتفسير الكبير ٢٧ / ١٥٠ ، والتحرير والتنوير ٢٥ / ٤٥ .

(٤) راجع : الكشاف ٤/١٢٦ ، التفسير الكبير ٢٧ / ١٥٠ .

ذاته سبحانه ، يقول البيضاوي رحمه الله : أي ليس مثله شيء يزاوجه ويناسبه[1] .

وقد أحدث دخول كاف التشبيه على (مثل) في هذه الجملة الشريفة إشكالاً لدى المفسرين والبلاغيين القدماء ، وقد أورد الرازي ـ رحمه الله ـ هذا الإشكال وفنده بوعي وحنكة ، مستفيداً في ذلك بما ذكره الزمخشري وغيره من علماء الأمة، يقول رحمه الله : "وفي ظاهر هذه الآية إشكال، فإنه يقال المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى، وظاهرها يوجب إثبات المثل لله ، فإنه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه، وذلك يوجب إثبات المثل لله تعالى ، وأجاب العلماء عنه بأن قالوا: إن العرب تقول مثلك لا يبخل ، أي أنت لا تبخل ، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه ، ويقول الرجل : هذا الكلام لا يقال لمثلي، أي: لا يقال لي ... والمراد منه المبالغة ، فإنه إذا كان ذلك الحكم منفياً عمن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له ، فلأن يكون منفياً عنه كان ذلك أولى ... فكذا ههنا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ والمعنى: ليس كهو شيء على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه[2].

والرازي ـ كما أشرت ـ مستفيد في هذا النص بكلام الزمخشري في أحد رأييه ، حيث يرى أن (ليس كمثله شئ) جارٍ مجرى قولهم : مثلك لا يبخل ، وما كان على شاكلته في نفى الصفة عن المثل والمقصود نفيها عن المخاطب نفسه ، غير أنهم سلكوا فيه طريقاً أبلغ ، وهو طريق الكناية ، وهذا هو الرأي الأول للزمخشري ، والذي بنى عليه الرازي كلامه السابق ، وأما الرأي الثاني له ، فهو رأى ضعيف ضعفه هو بنفسه حيث قال : " ولك أن تزعم أنَّ كلمة التشبيه كرِّرت للتأكيد ، كما كرَّرها من قال : وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنَ ... ومن قال :

---

(١) راجع : تفسير البيضاوى بحاشية الشيخ زادة ٤٠٩/٧ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ١٥٣/٢٧ ، ١٥٤ .

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ .."[1] .

فهو يرى جواز أن يقال في الآية الكريمة : إن دخول الكاف على (مثل) وهما من أدوات التشبيه البياني بمثابة تكرار الأداة لتوكيد التشبيه، كما كررت لهذا الغرض في المثالين اللذين ذكرهما ، ولكنه يبدو غير مقتنع بما ذهب إليه ، ولذلك قال : ولك أن تزعم .

ونشير إلى أن تقدير الرازي : ليس كهو شئ ، لم يقنع الشيخ زادة ـــ رحمه الله ـــ ولذلك رده حيث قال عنه :" وهذا القول ليس بجيد ؛ لأن زيادة الأسماء ليست بمعهودة... ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في الشعر"[2].

والحق معه ، إذ لم يعهد في الأساليب البليغة مثل هذا الأسلوب الذي قدره الرازي ـــ رحمه الله ـــ حيث لم يسمع عنهم : أنت كهو ألبتة ، ولو قدر الرازي ـــ رحمه الله ـــ معنى الآية كما قدره البقاعى رحمه الله : أي مثل نفسه في ذاته ولا في شيء من صفاته[3] ، لكان أفضل من هذا التقدير الذي قدره .

وتختتم الآية الكريمة بتعريف طرفي الجملة الاسمية (وهو السميع البصير) تعريفاً يفيد القصر ، قصر صفتي السمع والإبصار على الله تعالى ، قصراً حقيقياً مبنياً على المبالغة ؛ لأن الله تعالى أوجد هذين الوصفين في كثير من خلقه ، فقد أوجدهما في الإنسان ، وفي الحيوان ، وفي الطير ، وفي غير ذلك من مخلوقاته ، ولكنه لما كان الكمال لسمع الله تعالى وبصره وحده ، نزل سمع وإبصار هذه المخلوقات تجاههما منزلة العدم ، يقول الرازى رحمه الله : " فإن قال قائل قوله ﴿وَهُوَ السميع البصير﴾ يفيد الحصر ، فما معنى هذا الحصر ، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟! فنقول : السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ،

---

(١) راجع : الكشاف ١٢٧/٤ .

(٢) راجع : تفسير البيضاوي بحاشية الشيخ زادة ٤١٠/٧ .

(٣) راجع : نظم الدرر ٦/ ٦٠٦ .

فهذا هو المراد من هذا الحصر[1] .

وتختتم هذه الآيات بالحديث عن قضية الرزق ، وتبين أن الله تعالى يبسط فيه لمن يشاء ، ويضيق فيه على من يشاء ، وفق علمه تعالى بطباع خلقه :﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

والمقاليد: الخزائن[2] ، وقد أفاد التعريف بالموصولية في ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ العموم المخصص بمشيئة الله تعالى في بسط الرزق لمن يبسط لهم فيه من عباده.

وجملة ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تذييل يؤكد جريان البسط والقبض في الرزق وفق علمه تعالى وتقديره ، فمن علم أن البسط خير له بسط له فيه، ومن علم أن القبض خير له ضيق وقدر له .

وتنكير (شئ) في جملة التذييل أفاد عموم علم الله تعالى وإحاطته بدقائق الأمور ومستعظماتها .

---

(١) راجع : التفسير الكبير ١٥٥/٢٧.

(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦١/٤ نشر : مكتبة دار التراث بالقاهرة . بدون تاريخ .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ

ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ .

لما عدد الله تعالى نعمه الخاصة على خلقه ، أتبعه هنا بذكر نعمه العامة ، وهى ما شرع لهم من العقائد المتفق عليها من توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله، وكتبه ، واليوم الآخر، وما فيه من جزاء [1].

ثم أشار إلى أن المشركين من أهل الكتاب ما تفرقوا واختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم عن طريق إرسال الرسل إليهم،وأن اختلافهم هذا جعل أبناءهم الذين أتوا من بعدهم يتخبطون في شك من أمر هذا الدين مريب .

ثم تلتفت الآيات إلى خطاب النبي ﷺ وحثه على مداومة الدعوة لأجل هذا إلى دين الله ، وجمع الناس تحت لواء هذا الدين ، وإزالة ما بينهم من اختلاف فيه ، مع الاستمرار والمداومة على الاستقامة والحذر من اتباع أهواء هؤلاء والميل إلى معتقداتهم الضالة ، ثم الإعلان بين أيديهم بإيمانه ﷺ بما أنزل الله تعالى من الكتب على من سبقه من الرسل ــ عليهم السلام ــ استدراجاً لهم إلى الإيمان بهذا ، ثم إخبارهم بأنه ــ عليه السلام ــ قد أمر بإقامة العدل بينهم ، ثم الشهادة أمامهم بوحدانية الله عز وجل وربوبيته لهم ولمن أسلم ، ثم إخبارهم بأن المجازاة على الأعمال ثواباً وعقاباً لا تتعدى أصحابها إلى غيرهم ، وأن الجمع والمصير إلى الله تعالى ليحكم بين الفريقين .

---

(١) راجع : البحر المحيط ٥١٢/٧ ، ونظم الدرر ٦٠٩/٦ .

ثم تنتقل الآيات إلى بطلان حجية من يجادل من أهل الكتاب والمشركين في وحدانية الله ، أو في وحدانية دينه ، من بعد ما استجاب له المسلمون ، أملاً منهم في صرف الناس عن الدين القويم ، وحرصاً على إبقاء التفرق والاختلاف .

ثم تؤكد الآيات لهم أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتب على رسله لإقامة الدين ، وأنزل فيها الأحكام لإقامة العدل ، وأن الساعة قريب ، غير أنهم يستعجلون بها استهزاءً وسخرية ، مع إشفاق المؤمنين منها، لعلمهم بأنها الحق الذي لا مراء فيه .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن الرزق مالاً أو غير ذلك ، وتشير إلى أنه يجرى بمقتضيات لطف الله تعالى وعلمه بسرائر خلقه وطبائع أنفسهم ، وأنه تعالى هو وحده القوى ، العزيز ، القادر على أن يعطي من يعطي، ويمنع من يمنع .

ولما بين سبحانه أن الرزق ليس إلا في يده ، أتبعه بما يزهد في طلب رزق البدن ، ويرغب في رزق الروح فقال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا .... ﴾ ففرق بين عملي العاملين : بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له ، وفرغ منه ، وماله نصيب قط في الآخرة[1] .

ثم تختتم الآيات بالإنكار على المشركين اتخاذهم شركاء من دون الله يشرعون لهم شرائع تخالف دين الله الواحد الذي أرسل به رسله يدعون الناس إلى إقامته .

---

(١) راجع : الكشاف ٤/١٣٠ ، ونظم الدرر ٦/٦١٩ .

أسرار التعريف والتنكير

اشتملت الآية الأولى من هذه الآيات على كثير من أساليب التعريف والتنكير التي أسهمت ــ بدلالاتها ــ بشكل كبير في بناء المعنى وتكوينه.

ومن أهم هذه الأساليب : التعريف باللام وبالموصولية في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ...﴾ فقد عرف النظم الكريم (الدين) باللام لاستغراق جنس الأديان، وسبق (الدين) بـ (من) الدالة على التبعيض ، ثم جاءت (ما) الموصولة وصلتها ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ﴾ ، ثم (الذي) وصلته : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ثم (ما) والصلة بعدها : ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ ليدل ذلك كله على أن دين الله الذي شرعه وارتضاه للمسلمين ، هو ذلك الدين الذي جاء به أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام .

والملاحظ في تعريف المفعول بالموصولية في هذا السياق استخدام (ما) والصلة (وصى ــ وصينا) في التعبير عما جاء به رسل الله: (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) عليهم السلام ، بينما استخدم اسم الموصول (الذي) وصلته ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ في التعبير عما جاء به نبينا ﷺ ، كما يلاحظ أيضاً تعريف المسند إليه بضمير المفرد المستتر في وصاية نوح عليه السلام :﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ﴾ ، وتعريفه بضمير الجمع الظاهر في الإيحاء إلى محمد ﷺ : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، وفي وصاية إبراهيم وموسى وعيسى :﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ ، كما يلاحظ أيضاً تقديم ما أوحى إلى رسولنا ﷺ على ما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام مع تأخره عنه زماناً ، وأيضاً تقديم ما

وصي به نوحاً على ما أوحاه إلى نبينا ﷺ ، ويلاحظ كذلك الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وتوجيه الكلام إليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ دون غيره من هؤلاء الرسل ، إذ لو جرى الأسلوب على نسق واحد ، لقال النظم : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً وما وصى به محمداً ، وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى .

ونلخص هنا ما قاله بعض أهل العلم ــ رحمهم الله ــ في توجيه ذلك .

فقد أشار أبو السعود ت٩٥١هـ والألوسي ت١٢٧٠هـ رحمهما الله بعد أن ذكرا أن المراد بما أوحى إليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ ، أو ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[2] وغير ذلك . إلى أن التعبير عن ذلك عند نسبته إليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ بـ (الذى) لزيادة تفخيم شأنه من تلك الحيثية ، وأن إيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوطئة لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة ، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته ــ عليه الصلاة والسلام ــ القامع لإنكار الكفرة ، وأن الالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه ، وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً ، وأن تقديم توصيه نوح للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً،وأن توجيه الخطاب له ــ عليه الصلاة والسلام ــ بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام[3] .

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٣ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ١١٠ .

(٣) راجع : تفسير أبى السعود ٢٦/٨. ط: دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ بدون تاريخ . وروح المعانى ٢٥ / ٢٠ وما بعدها .

ويرى الشهاب ـ ت١٠٦٩هـ ـ رحمه الله ـ أن في الآية اكتفاء بالابتداء والاختتام والوسط عن الجميع ، والعدل عن وصينا إلى أوحينا مع كاف الخطاب للفرق بين توصيته وتوصيتهم ، والابتداء بـ (نوح عليه السلام) لأنه أول الرسل ، فالمعنى : أنه شرع لكم من الدين ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، والتعبير بالتوصية فيهم والوحي له للإشارة إلى أن شريعته ﷺ هي الشريعة الكاملة، ولذا عبر فيه بـ (الذي) التي هي أصل الموصولات وأضافه إليه بضمير العظمة تخصيصاً له ولشريعته بالتشريف وعظم الشأن ، ومن بينهما الثلاثة المذكورون لأنه ليس لغيرهم شريعة كشريعتهم [١].

أما الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ فيركز على الفرق في الاستعمال بين (ما) و (الذى) مستفيداً في ذلك بما ذكره عبد القاهر ـ رحمه الله ـ في اسم الموصول (الذى) واستعماله فيما هو معروف الصلة مشهور بها[٢] ، فيشير إلى أن استخدام (ما) في جانب ما وصي به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ،و (الذى) في جانب ما أوحى إلى محمد ﷺ ، قد يظهر في بادئ الرأى أنه تفنن بتجنب تكرير الكلمة ثلاث مرات متواليات ، ويرى أن هذا كافٍ في هذا التخالف ، لكنه يضيف إلى هذه المخالفة اللفظية غرضاً معنوياً ، وهو أن (الذي) وأخواته هي الأصل في الموصولات ، وهى موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يعين بحالة معروفة هى مضمون الصلة ، فالذي يدل على معروف عند المخاطب بصلته، وأما (ما) فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة ... ثم عرض لها التعريف بكثرة استعمالاتها نكرة موصوفة بجملة ، فتعرفت بصفتها وأشبهت الموصول في ملازمة الجملة بعدها ؛ ولذلك كثر استعمالها موصولة في غير العقلاء ، فيكون إيثار ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ـ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ بحرف

---

(١) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٣٨/٨ وما بعدها .

(٢) راجع دلائل الإعجاز ص١٩٩ وما بعدها .

(ما) لمناسبة أنها شرائع بعد العهد بها ، فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلا إجمالاً ، فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها ، وأما إيثار الموصى به إلى النبى ﷺ باسم (الذي) فلأنه شرع متداول فيهم معروف عندهم ، فالتقدير : شرع لكم شيئاً وصى به نوحاً، وشيئاً وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشئ الموحى به إليك[1] .

ولعل الظاهر ــ رحمه الله ــ لم يرد في هذا السياق أن يجعل (ما) الموصولة حرفاً ، حينما قال : " فيكون إيثار ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾، بحرف ما ... " خصوصاً وأنه كان قد أشار إلى أنها كانت في الأصل نكرة مبهمة ، وفسرها في الآية على بقائها نكرة موصوفة حيث قال :(فالتقدير : شرع لكم شيئاً وصى به ...) ، وإلا فالإجماع على أن (ما) في مثل هذا الأسلوب موصولة بمعنى (الذي) ، وهى اسم ناقص، ، وأن (ما) النكرة لا تكون الا اسماً ، سواء تضمنت معنى الحرف أم لا ؛ لأن التنكير والتعريف لا يختص إلا بالأسماء[2] .

أما عن سر الترتيب بين الأنبياء وما أوحى إليهم في الآية الكريمة ، فقد فسره بعض العلماء بأن نوحاً ــ عليه السلام ــ أول رسول ، إذ لم تكن قبله شرائع ، ومحمد ﷺ آخرهم ، ثم قُدِّم إبراهيم لأنه أبو العرب ، ثم ذكر موسى وعيسى لأنهما هما اللذان كان أتباعهما موجودين زمان بعثة محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، وقد خص هؤلاء الرسل دون غيرهم بالذكر لعلو شأنهم ، وعظم شهرتهم ، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع ، لاتفاق كل على نبوة بعضهم ، واختصاص اليهود بموسى ، والنصارى بعيسى عليهما السلام[3] .

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٥٢ .

(٢) راجع في أقسام (ما) مغني اللبيب ٣٢٦/١ .

(٣) راجع البحر المحيط ٥١٢/٧ . وتفسير أبى السعود ٢٥/٨ ، وروح المعاني ٢٥ / ٢٠ .

والخطاب في ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ قيل للمسلمين ، أي : اجعلوه قائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب، وقيل لأمم الأنبياء جاءهم العلم فطال عليهم الأمد فآمن قوم وكفر قوم[1].

والراجح عندنا ــ والله أعلم ــ أنه للمسلمين بدليل صدر الآية (شرع لكم) وبدليل : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ فالأسلوب جارٍ على نسق واحد وهو الخطاب للمسلمين .

وتعريف المسند إليه بـ (ما) الموصولة في ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ جاء ملائماً لإنكار المشركين شرع الله حتى بعد أن أصبح معروفاً معهوداً .

واللام في (المشركين) إما للجنس ، فيكون عظم أمر هذا الدين قد عم جنس المشركين ، وإما للعهد العلمي، فيكون المقصود بهم مشركي مكة الذين عاندوا وكابروا وأبوا الاستجابة لما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ.

وتأمل تعريف المسند إليه بلفظ الجلالة في الجملة الكريمة : ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ وما في هذه الطريقة من إحضار للمسند إليه في ذهن السامع قبل مجئ الخبر ، مع ما تثيره في النفوس من تشوف وتشوق لمعرفة الخبر الذي سيأتي بعد ذلك الاسم الأعظم .

والضمير في (إليه) راجع إلى الدين ، وقيل : راجع إلى لفظ الجلالة ، ورجوعه إلى الدين أولى كما ذهب أكثر المفسرين[2] .

وتأمل تعريف المفعول بالموصول (من) وما أفاده في هذا المقام من العموم الداخل في مشيئة الله والإنابة إليه ، ثم تأمل جملة الصلة هنا وكيف جاءت مع

---

(١) راجع : البحر المحيط ٧/ ٥١٢ .

(٢) راجع جامع البيان ١١/٢٥ ، الكشاف ١٢٨/٤ ، تفسير أبى السعود ٢٦/٨ ، حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٣٩/٨ .

الاجتباء مشتقة من المشيئة إشارة إلى أن اجتباء الله العبد ـ وهو تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعيم[1] ـ لا يكون بسعي من العبد،وإنما يكون بمحض مشيئة الله تعالى.

بينما جاءت الصلة مع الهداية مشتقة من الإنابة لتشير إلى أن الهداية إلى دين الله تكون بسعي العبد إلى ذلك بالتوبة والرجوع عن الكفر .

وقد جاءت الصلة فيهما على صيغة المضارعة تناسباً مع استمرار مشيئة الله في اجتباء من شاء اجتباءه إليه من عباده ، واستمرار وتجدد التوبة والإنابة حتى تتحقق الهداية .

والآية ـ بعدُ ـ تعد تفصيلاً لما أجمل في مطلع السورة ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وتقريراً لأن ما شرعه الله للمسلمين هو في عمومه ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه[2] .

ويأتي تعريف المسند إليه في الآية التالية : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ بالإضمار ، والضمائر هنا للغيبة تناسباً مع مقام الحديث ـ على أصح الآراء ـ عن تفرق الأمم السابقة واختلافهم فيما جاء به أنبياؤهم ، وقيل : إن الحديث هنا عن العرب[3] .

والراجح عندنا ـ والله أعلم ـ أن الحديث في هذا المقام عن الأمم السابقة بدليل قوله تعالى بعد ذلك في هذه الآية : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ لأن الضمير في (من بعدهم) يرجع ـ كما سيأتي بيانه ـ إلى أهل

---

(١) راجع : مفردات الراغب (جبى) .

(٢) راجع : في ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب ٢٥ / ٣١٤٧. ط: دار الشروق، بدون تاريخ .

(٣) راجع : جامع البيان ٢٥ / ١١ ، الكشاف ١٢٩/٤ ، تفسير الكبير ٢٧ / ١٥٩ .

الكتاب السابقين .

ثم يأتي التنكير في (كلمة) و (أجل) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ليفيد الإفراد ، حيث إن كلمة الله لكل أمة كانت واحدة لم تتغير ، وهى تأجيل عذابها إلى أجل واحد لم يتقدم ولم يتأخر .

ولسنا مع الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ في حمله التنكير هنا على معنى النوعية [1] .

ثم يأتي تعريف المسند إليه بالموصولية : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ للإشارة إلى وجه بناء الخبر الذي جاء مؤكداً لشك ذرية هؤلاء في الكتاب الذي توارثوه عنهم ، لأنهم إذا كانوا قد ورثوا الكتاب عن آبائهم المختلفين فيه ، فإنهم سيكونون في شك منه مريب .

والمراد بالموصول هنا أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ .

وتأمل جملة الصلة في هذه الآية ، وكيف جاء التعبير فيها بالإرث إشارة إلى أن ما جاء في التوراة والإنجيل قد توارثته أجيال اليهود والنصارى جيلاً بعد جيل حتى آل الأمر إلى الجيل الذي عاصر نبينا ﷺ ، بل والأجيال التي أتت بعد ، والأجيال التي ستأتي إلى يوم القيامة ، ومما هو معلوم بطريق الكتاب والسنة أن أوائل اليهود والنصارى الذين نزل فيهم هذان الكتابان قد دسوا فيهما ما ليس منهما ، وجعلوهما قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ، فضلوا وأضلوا ــ لعنهم الله لعناً كبيراً ــ مما جعل أبناءهم الذين أتوا من بعدهم في شك من أمر هذين الكتابين عظيم ، فأصبحوا ــ كما يقول ابن كثير رحمه الله ــ ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل أو برهان[2].

---

(١) راجع التحرير والتنوير ٢٥ / ٥٧ .

(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم ٤/١٠٩ .

والضمير في (من بعدهم) يرجع إلى أهل الكتاب السابقين واللام في (الكتاب) للعهد ، والمقصود به التوراة والإنجيل[1] ، والضمير في (منه) يرجع إما إلى الكتاب ، أي : كتاب اليهود والنصارى ، وإما إلى القرآن ، وإما إلى الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، وإما إلى الدين الذي وصى به نوحاً ـــ عليه السلام ـ[2] ورجوعه إلى الكتاب أوضح .

والتنكير في (شك) أفاد التعظيم ، تصويراً لما وصل إليه هؤلاء الأبناء من مراتب الشك في أمر الكتاب الذي ورثوه عن آبائهم ، وأنهم بلغوا في ذلك درجة عظيمة تضرب بعقولهم في مهاوي التخبط والضلال.

ثم يأتي التعريف بالإشارة في مستهل الآية التالية : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ... ﴾ والمشار إليه هنا إما أن يكون التفرق المذكور في الآية السابقة ، فيكون المعنى : فلأجل التفرق وما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً (فادع) إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة (واستقم) عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ المختلفة الباطلة ، وإما أن يكون المشار إليه الدين الذي شرع لكم ووصى به نوحاً وأوحاه إليك يا محمد ، وعليه تكون اللام فيه بمعنى (إلى) أي : إلى ذلك فادع ، وإما أن يكون المشار إليه القرآن ، أي : فإلى هذا القرآن فادع ، وإما أن يكون إقامة الدين المنصوص عليها بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أي : فادع لدين الله وإقامته ، وإما أن يكون النظم الذي أوتيته ، وإما أن يكون الشك المذكور قريباً في الآية السابقة ، أو أن المشار إليه متصيد من الكلام السابق والتقدير : فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم

---

(١) راجع : البحر المحيط ٥١٣/٧ .

(٢) راجع : المرجع السابق الصفحة ذاتها .

الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون فادع[1] .

وتخصيص المشار إليه بالتفرق أنسب لسياق النظم الكريم ، ويكاد يجمع عليه المفسرون ، فهو أولى بالقبول .

وقد جاءت الإشارة هنا بما يشار به للبعيد ــ مع قرب المشار إليه ــ تعظيماً وتفخيماً لشأن هذا التفرق الذي بدد أواصر المجتمع الإنساني ، وقطّع بنى آدم أمماً مختلفة من بعد ما كانوا بعد الطوفان أمة واحدة مهتدية .

ثم يأتي التعريف بالموصولية مع التنكير في قوله تعالى : ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ لإرادة العموم ، والمعنى ــ كما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله ــ وقل لهم يا محمد: صدَّقت بما أنزل الله من كتاب كائناً ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلاً أو زابوراً أو صحف إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب وتصديقكم ببعض[2] .

وتأمل دقة النظم في هذا المقام وكيف جاء بالموصول (ما) الذي يأتي لغير العاقل تلاؤماً مع ما أنزل الله من كتاب ، ثم بالصلة ﴿ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ لتكتمل الفائدة بهذه الصلة التي توقف إيمانه ﷺ على كل ما أنزل الله من كتاب دون غيره ، ليخرج كل ما كتبوه بأيديهم وادعوا أنه من عند الله افتراءً على الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ولو قال النظم : وقل آمنت بالكتب ، لطمعوا في إيمانه ﷺ بما كتبوه بأيديهم ودسوه داخل الكتب المنزلة إليهم .

ومجئ الصلة على صيغة الماضي فيه إشارة إلى أن المقصود إقراره ﷺ أمامهم بإيمانه بما نزل قبله من كتب على الأنبياء السابقين ، وفيه تلويح بأنه ﷺ

---

(١) راجع : جامع البيان ١١/٢٥ ، الكشاف ١٢٩/٤ ، التفسير الكبير ١٥٩/٢٧ ، البحر المحيط ٥١٣/٧ ، تفسير القرآن العظيم ١٠٩/٤ ، تفسير أبى السعود ٢٧/٨ ، تفسير البيضاوى بحاشية الشيخ زاده ٤١٢/٧ ، وتفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٤١/٨ .

(٢) راجع : جامع البيان ٢٥ / ١٢ .

خاتم الرسل وأنه لن ينزل كتاب بعد هذه الكتب والكتاب الذي نزل عليه ﷺ ، ولو قال النظم : وقل آمنت بما ينزل الله من كتاب ، لفاتت هذه الإشارة ، ومجئ (من) وصلة قبل النكرة زاد السياق عموماً وشمولاً ، وزاد المعنى استقصاء لجنس الكتب المنزلة .

هذا وقد جعل الطاهر بن عاشور رحمه الله ــ التنكير في (كتاب) للنوعية ، حيث قال: " فالتنكير في ﴿كتاب﴾ للنوعية ، أي بأي كتاب أنزله الله "[1].

وهذا القول يتعارض مع إفادة (ما) العموم ، ويتعارض مع تفسيره هو للنوعية بقوله : أي : بأي كتاب ؛ لأن هذه الجملة تفيد العموم ، لا النوعية .

وحمل التنكير في الآية الكريمة على إفادة العموم يؤيده ما نقلناه آنفاً عن ابن جرير ــ رحمه الله ــ في بيان معنى الآية ، ويؤيده أيضاً ما ذكره أبو حيان ــ رحمه الله ــ في تفسيرها حيث قال :" وأمره بأن يصرح أنه آمن بكل كتاب أنزله الله[2] " . كما يؤيده ما ذكره البيضاوي رحمه الله في تفسيرها ، وهو قوله: " يعني جميع الكتب المنزلة"[3] .

والخطاب في ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وما بعده ، لليهود والنصارى ، والمعنى : وأمرت لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليَّ ، أو لأعدل بينكم بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداوتكم[4] .

وقد جرى النظم الكريم في هذا الجزء من الآية على نسق التعريف بضمير الخطاب،لأن المقام مقام خطاب وتبليغ فهو يقتضى هذه الطريقة .

ثم يأتي تعريف المسند إليه بالعلمية في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٦٢ .

(٢) راجع : البحر المحيط ٥١٣/٧ .

(٣) راجع : تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٤١/٨ .

(٤) راجع : الكشاف ١٢٩/٤ ، التحرير والتنوير ٢٥ / ٦٢ .

لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء ، ومثله قوله تعالى في ختام الآيـة :﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ولا يخفى ما في هذه الطريقة من اللفت والتشويق لسـماع الخبر الذي سيسند إلى المسند إليه المذكور باسمه صريحاً ، والخبر هنـا وهـو ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ في الجملة الأولى ، و﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ في الجملة الثانية ، من الأخبار التي ينكرها المخاطبون ويشددون في إنكارها ؛ لذلك سيق الكلام لهم على هذا النسق الذي يملأ نفوسهم ترقباً وانتظاراً وتهيئة لاستقباله ، حتى يتمكن من هذه النفوس أيما تمكن ، فتقر بمضمونه ، وتؤمن به .

ولعلك تلحظ ما أفاده مجئ الخبر في الجملة الأولى بلفظ (رب) مضافاً إلـى ضمير المتكلمين والمخاطبين ، من إشارة إلى التسوية بين الطرفين في الاشتراك في مربوبيتهم لله عزَّ وجلَّ ، وما أفاده مجيئه في الجملة الثانيـة علـى صـيغة المضارعة ، من دلالة على وقوع الجمع الذي لا ريب فيه في المستقبل .

ولا يخفى ما في الطريقة من دلالة على قصر الربوبيـة والجمـع علـى الله وحده، ونفيهما عمن سواه ، قصر صفة على موصوف ، قصراً حقيقياً تحقيقياً ، زيادة في التأكيد والتقرير.

وتأمل التعريف بالإضمار والإضافة في قوله عزَّ وجـلَّ : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ مع تقديم الجار والمجرور ، أو المسند على المسند إليه ، وما أفاده ذلك من اختصاص كل واحد من الفريقين بجزاء عمله ثواباً أو عقاباً بحيث لا يتعـداه إلى الفريق الآخر ، وفي هذا ما فيه من التهديد والتخويف .

وقد أدى التنكير في سياق النفي في قوله سبحانه: ﴿ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ دوراً مهماً في نفي أدنى حجة تكون بين الطرفين بعد ما اتضحت الأمور وظهـر الحق ، والمعنى : لا خصومة بيننا وبيـنكم ؛ لأنّ الحـق قـد ظهـر وصـرتم

محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة[1] .

فقد أفاد التنكير في هذا السياق التقليل ، أو التقليل مع التحقير ، ويمكن أن يفيد العموم كما ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله [2] .

وتختتم الآية الكريمة بتعريف المسند إليه في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ بلام الجنس للاستغراق ، ولذلك كانت الجملة ــ كما يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله ــ تذييلاً بما فيها من العموم ، أي مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلهم إليه[3] .

ولا يخفى أن تقديم المسند على المسند إليه في هذه الجملة قد أفاد القصر، حيث قصر المصير على كونه إلى الله عزَّ وجلَّ دون غيره ، قصراً حقيقياً تحقيقياً.

ويأتي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مصدراً بتعريف المسند إليه بالموصولية ، وذلك للإيحاء إلى وجه بناء الخبر ، لأن الصلة ﴿ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ توحي بأن الخبر الذي سيأتي بعد سيكون عقاباً لهم على هذه المحاجة ، وقد جاء الخبر كذلك ، وهو قوله عزَّ وجلَّ :﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .

وجئ هنا باسم الموصول (الذين) دون (من) لأن المحاجين في دين الله كانوا معروفين بالمحاجة بالنسبة للمخاطبين ، والمراد به في هذا السياق هم أهل الكتاب، وحجتهم هي قولهم للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم ، وأولى بالحق . وقيل : هي قولهم للمؤمنين : ألستم تقولون إن

---

(١) راجع : الكشاف ١٢٩/٤ ، وتفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٤٢/٨ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٦٣ .

(٣) راجع : المرجع السابق ٢٥ / ٦٤ .

الأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف ؟. فنبوة موسى وحقية التوراة مطومة بالاتفاق ، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ، فوجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى. وقيل المراد بالموصول المشركون لأنهم يحاجون في شأن الله وهو الوحدانية[1].

وقد جاءت الصلة على صيغة المضارعة إشارة إلى استمرار المحاجة وتجددها ، وتلميحاً إلى أنها أصبحت دأبهم الذي لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه . .

وأضيفت الحجة إلى ضميرهم تحقيراً لها ونصاً عليها بأنها هي التي يدحضها الله ، وليس مطلق حجة ، حتى لا تدخل حجة المؤمنين في حكم الدحض .

وتأمل كيف سلك النظم طريق الإضافة مرة أخرى في :﴿ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وكيف أضاف ضميرهم إلى لفظ (رب) ، ولم يضفه إلى لفظ الجلالة ، حيث لم يقل: داحضة عند الله ، وما في ذلك من الإشارة إلى أنهم جادلوا في دينٍ أو في وحدانية ربهم الذي أنشأهم ورباهم، فهو مالكهم ، وهو القادر على تدبير كل شئ، ومنه دحض حجتهم ، فلفظ : رب يتضمن معنى الملك والتدبير "[2] ، فكأنه قيل : حجتهم داحضة عند المالك المدبر لكل شئ .

ونكر (غضب وعذاب) تهويلاً وتفظيعاً لأمر الغضب والعذاب الذي ينتظرهم في مآلهم الأخروي جزاءً وفاقاً، وقد وصف العذاب بالشدة ليتعانق الوصف مع التنكير في زيادة عذابهم هولاً وتفظيعاً .

وفي الآية الكريمة : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ . . . ﴾ يأتي تعريف المسند إليه بالاسم الأعظم تعييناً له باسمه المختص به قبل إسناد الخبر الأعظم ــ وهو الإخبار بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ــ إليه ، والتعريف بالعلمية

---

(١) راجع : الكشاف ١٣٠/٤ ، التفسير الكبير ١٦٠/٧ ، التحرير والتنوير ٢٥ /٦٥ .

(٢) راجع : الفروق اللغوية ص١٩٧ .

هنا هو أنسب طرق التعريف لمقام الحديث عن إنزال الكتب والشرائع، لما فيه من إشارة إلى اختصاص الله ــ تعالى ــ وحده بذلك .

ثم يأتي الخبر معرفاً بالموصولية ، والموصول هنا هو (الذي) دون (من) تناسباً مع علم المخاطبين بالصلة ، وهى إنزال الكتب والشرائع من الله تعالى ، ثم تأتى الصلة ﴿ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ بصيغة المضي إشارة إلى تحقق الإنزال وانتهاء مدته بإنزال الكتاب الخاتم على النبي الخاتم ﷺ .

ثم يأتي تعريف المفعول (الكتاب والميزان) بلام الجنس استغراقاً لجنس الكتاب والميزان ؛ لتدخل جميع الكتب المنزلة بشرائعها في حكم واحد ، وهو الإنزال بالحق ، وجوز الشهاب ــ رحمه الله ــ حمل التعريف في (الكتاب) على العهدية والاستغراق [1] ، فيكون المقصود بـ (الكتاب) على العهدية الكتب الثلاثة المعهودة ، التوراة والإنجيل والقرآن .

وتوحيد الكتاب والميزان دليل على وحدة الحق الذي هو منبع كل كتاب ، وتوحد صورة العدل في دعوات المرسلين[2] .

والمقصود بـ ﴿ الميزان ﴾ كما يرى الزمخشري ــ رحمه الله ــ العدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة،وقيل: الذي يوزن به[3].

وزاد البيضاوي ــ رحمه الله ــ أن المقصود به الشرع الذي توزن به الحقوق ويسوي بين الناس [4] .

---

(١) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٤٣/٨ .

(٢) راجع : الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن الكريم د/ محمد الأمين الخضري ص٤٧ . مطبعة : الحسين الإسلامية ــ القاهرة ــ ط : أولى ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م .

(٣) راجع : الكشاف ١٣٠/٤ .

(٤) راجع : تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٤٣/٨ .

وعليه يكون التعبير عن الشرع بالميزان استعارة تصريحية ، حيث شبه الشرع بالميزان بجامع تحقق العدل بكلٍ ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به ، إخراجاً للشرع ــ وهو أمر معنوي ــ في صورة شئ حسي معهود .

وقد أفاد تعريف (الحق) باللام بلوغ ما أنزله الله من الكتاب والميزان حد الكمال في تلبسهما بالحق وبعدهما عن الباطل ، فـ (الباء) فيه للملابسة[1] .

والخطاب في قوله تعالى:﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ عام يشمل كل مخاطب[2]، وفيه إشارة إلى عموم الخبر ، وأنه مما يجب أن يعلمه كل إنسان ، وأن يكون على تذكر منه ، واللام في (الساعة) للعهد الذهني .

وقد عرف المسند إليه في قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ بالموصول ؛ لأن الصلة (لا يؤمنون ــ آمنوا) مألوفة بالنسبة للمخاطبين ، فهم يعلمون كلا الفريقين: المشركين الذين لا يؤمنون بالساعة ، والمؤمنين الذين يؤمنون بها ويشفقون منها.

وتأمل الصلة في كلتا الجملتين ، لتجدها منفية في الجملة الأولى ، مثبتة في الجملة الثانية ، وذلك لمجيئها علة للحكم المذكور ، فقد جاءت في الجملة الأولى علة لاستعجال المشركين بالساعة سخرية واستهزاءً ، فهم يستعجلون بها لأنهم لا يؤمنون بها ، بينما جاءت في الجملة الثانية علة لإشفاق المؤمنين منها ، فهم يشفقون منها لأنهم يؤمنون بها ويعلمون أنها الحق .

كما جاءت الصلة في الجملة الأولى على صيغة المضارعة المنفية بـ (لا) التي تختص بنفي الحال، إشارةً إلى دوام حالهم على عدم الإيمان بها، بينما جاءت في الجملة الثانية على صيغة المضي، إشارة إلى تحقق إيمان المشفقين منها وثبوته.

---

(١) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٤٣/٨ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٦٩ .

ثم تأمل الملاءمة الدقيقة بين صياغة المسند في الجملتين وحال المسند إليه تجاه الساعة ، إذ لما كان حال المشركين تجاه الساعة هو الاستعجال المتجدد المستمر ، ناسبه أن يصاغ المسند (يستعجل بها) على صيغة المضارعة الدالة على ذلك ، ولما كان حال المؤمنين بها الثبات على الإشفاق والخوف منها ، ناسبه أن يصاغ المسند (مشفقون) على صيغة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام .

ولا يخفى أن هذا الجزء من الآية يُعَدُّ ــ كما يرى الطاهر بن عاشور رحمه الله ــ من أساليب الاحتباك إذ التقدير : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها ، والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها[1] ، فحذف من كل جملة ما يقابله في الجملة الأخرى .

ويأتي تعريف الطرفين في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ بالضمير في المسند إليه ، ولام الاستغراق في المسند ، ليفيد هذا الأسلوب قصر المسند على المسند إليه ، قصر صفة على موصوف ، مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه ، أي يوقنون بأنها الحق كل الحق ، وذلك لظهور دلائل وقوعها حتى كأنه لا حق غيره[2] .

وفي ختام الآية : ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ يأتي التعريف بالموصولية للإشارة إلى وجه بناء الخبر، فالصلة ﴿يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ تشير إلى أن الخبر الذي سيأتي بعد سيكون ذماً ووعيداً ، وقد تحقق ذلك بالخبر :﴿ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾، ومجئ الصلة هنا على صيغة المضارعة للإشارة إلى تجدد المماراة وحدوثها واستمرار أصحابها في المداومة عليها ، مما جعلهم جديرين بالخبر

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٧٠ .

(٢) راجع : المرجع السابق الصفحة ذاتها .

المذكور بعد ، وهو كونهم في ضلال بعيد ، واللام في (الساعة) للعهد ، والعهد هنا ذكري لسبق ذكر الساعة بلفظها في الآية السابقة، والتنكير في (ضلال) للتهويل والتفخيم .

ولما كان هذا الجزء من الآية ــ يحمل الحكم على الذين يمارون في الساعة جاء ملفوفاً بإطار قوي مؤكد مسبوق بأداة الاستفتاح (ألا) التى تستفتح مغاليق القلوب لاستقبال الخبر، ليبلغ هذا الخبر من النفوس مبلغ الصدق الذي لا يدافع .

وتطالعنا الآية الكريمة : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ... ﴾ بتعريف المسند إليه بالعلمية لإحضاره بعينه في ذهن السامع باسم مختص به ، ثم يأتي التعريف بالإضافة في (بعباده) تعظيماً وتشريفاً للمضاف ، وإشارة إلى أن لطف الله خاص بمن تحققت فيهم صفة العبودية للخالق جلَّ وعلا .

ثم يأتي تعريف الطرفين : ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ليفيد قصر القوة والعزة عليه سبحانه قصراً حقيقياً مبنياً على المبالغة لكماله فيه تعالى حتى كأن قوة وعزة غيره عدم .

وفي الآية التالية : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ... ﴾ نجد التعريف بالإضافة في (حرث الآخرة ــ حرث الدنيا) ، والإضافة هنا على معنى اللام ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾[1] وهى لام الاختصاص ، وهو في مثل هذا اختصاص المعلل بعلته[2] . وقد أفاد الأسلوب تعظيم حرث الآخرة لإضافته إلى ما هو خير وأبقى ، وتحقير حرث الدنيا لإضافته إلى ما هو أدنى وأفنى ، ولا يخفى أن إطلاق الحرث هنا من قبيل الاستعارة التصريحية ، حيث استعير ــ كما يرى الشريف الرضي رحمه الله ــ لكدح الكادح لثواب الآجلة

---

(١) سورة : الإسراء من الآية : ١٩ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٧٤ .

أو حطام العاجلة[1] .

ثم يأتي التنكير في (نصيب) مسبوقاً بـ (من) في سياق النفي ، لينفى أدنى شئ من نصيب الآخرة وثوابها عمن أراد الدنيا وسعى لها سعيها غير مبتغ وجه الله ، فالتنكير هنا يفيد التقليل، ويمكن حمله على العموم ، فيكون المعنى : ليس له في الآخرة أي نصيب منها ، إلا أن حمله على التقليل أولى .

ومن بلاغة النظم في هذه الآية أنه أتى في الشرط بالفعل ﴿ كانَ ﴾ ماضياً ، ليوقف الجزاء على من ثبت فيه الشرط وكان دأبه وسجيته ، وأتى بجواب الشرط مع من أراد حرث الآخرة ناصاً على الزيادة له:﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ ليشير إلى مضاعفة أجره وزيادته إلى ما شاء الله ، بينما أتى بالجواب مع من أراد حرث الدنيا ناصاً على أنه سيؤتى منها فحسب : ﴿ نؤته منها ﴾ إشارة إلى أنه لن يؤتى منها إلا بعض ما يريد ، وهو ما قدره الله له .

وغير خافٍ أن ﴿ مَن ﴾ في هذه الآية ــ وان كانت شرطية ــ إلا أنها أفادت العموم ، وأن التعبير بها في صدر الآية يثير في نفس المتلقي تشويقاً وتطلعاً لمعرفة الخبر الذي سيحمله الجواب بعدها ، لأن الجواب هو المتمم للمعنى[2] .

وفي ختام هذه الآيات يسلك النظم الكريم طريق التعريف بضمير الغيبة : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ... ﴾ لأن المقام مقام حديث عن المشركين وقد سبق ذكرهم ، فالمقام مقام غيبة ، والمعنى: أم لهؤلاء المشركين

---

(١) راجع : تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص٢٧٥ تحقيق د/ على محمود مقلد ، نشر : مكتبة الحياة ــ بيروت ــ ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

(٢) راجع التشويق بالشرط في : التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه د/ بسيونى عبد الفتاح فيود ص٨٨ وما بعدها . مطبعة الحسين الإسلامية ــ القاهرة ــ ط : أولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م .

شركاء في شركهم وضلالتهم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله[1] .

و ﴿أَمْ﴾ في صدر الآية منقطعة فيها معنى (بل) الإضرابية والهمزة التي للتقرير والتقريع والإضراب عما سبق من قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ ، فالمعنى : بل ألهم شركاء ؟[2] .

والتنكير في ﴿شُرَكَاء﴾ يفيد النوعية ، لأن المقصود هنا نوع من الشركاء ، وهم هؤلاء الذين شرعوا لهم من الدين ديناً لم يأذن به الله .

فالسؤال ــ كما يرى الطاهر بن عاشور رحمه الله ــ عمن شرع لهم دين الشرك ، أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاء لله في الإلهية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان ؟. وهذا على سبيل التهكم بهم ، لأن هذا النوع من الشركاء لم يدعه أهل الشرك من العرب[3] .

واللام في (الدين) لاستغراق الجنس ، والموصول وصلته ﴿مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ لتحديد واحد من جنس الأديان، وهو ذلك الدين الذي لم يأذن به الله، وجئ بالموصول (ما) لأن الدين مما لا يعقل ، والتركيز هنا على جملة الصلة ﴿لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ لأن محط الإنكار والتقرير والتفزيع أن يكون لهم شركاء شرعوا لهم من الأديان ديناً لم يكن من الله إذن به .

ويأتي التعريف بطريق الإضافة في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ليفيد تعظيم وتفخيم شأن المضاف ، والإضافة هنا من إضافة الموصوف إلى صفته ، أي : ولولا كلمة الفاصلة ، وهى كناية عن تأجيل الفصل فيما اكتسبه

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٥ / ١٤ .

(٢) راجع : تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٣٤٥/٨ ، روح المعاني ٢٥ / ٢٨ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٧٦ .

العباد إلى يوم القيامة ليقضى بينهم[1] .

والمقصود بالضمير ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ إما الكافرون والمؤمنون ، وإما المشركون وشركاؤهم[2] ، واللام في ﴿الظَّالِمِينَ﴾ في قوله تعالى في ختام الآية : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لعموم الجنس ، فيكون الوعيد بالعذاب الأليم لجميع الظالمين أياً كان ظلمهم ، أو للعهد ، فيكون المقصود بالظالمين المشركين الذين تتحدث عنهم السورة ، وقد أطلق القرآن الكريم لفظ الظلم على الشرك في وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] ، وقد أفاد التنكير في ﴿ عذاب ﴾ التهويل والتفظيع .

---

(١) راجع : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم لأستاذنا د/ عبد العظيم المطعني ٣٢/٤ . نشر : مكتبة وهبة ط: أولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

(٢) راجع : الكشاف ١٣١/٤ .

(٣) سورة لقمان من الآية : ١٣ .

الجزاء الأخروي لكل من الفريقين

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

ينتقل بنا النظم الشريف في هذا الجزء من السورة إلى تصوير الجزاء الأخروي لكلٍ من الفريقين في يوم الفصل ، وفي هذا المشهد يظهر الظالمون مشفقين وجلين من أعمالهم السيئة التي قدموا بها لأنفسهم في حياتهم الدنيا ، ومن قبل كانوا يستعجلون بالساعة غير مشفقين منها ولا مبالين بها ، أما اليوم فقد أشفقوا لمَّا رأوا أعمالهم قد مَثُلت أمامهم وأيقنوا أن جزاء هذه الأعمال واقع بهم لا محالة ، وفي المقابل يظهر المؤمنون الذين أشفقوا من الساعة في الدنيا وسعوا لها سعيها منعمين في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم .

ثم يأمر المولى تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأنه لا يريد منهم

في مقابل دعوتهم إلى دين الله مالاً ، وإنما يسألهم الإيمان والمودة من أجل القربى التي تجمع بينه وبينهم .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن تكذيب المشركين للنبي ﷺ فيما يدعوهم إليه، وفيما يتلوه عليهم من قرآن ، واتهامهم إياه بالكذب والافتراء على الله، وتشير الآيات إلى أن الأمر لو كان كذلك لختم الله على قلبه إن شاء، وأنساه القرآن فلا يستطيع أن يحدثهم بشئ مما يحدثهم به ، فهو يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وهو عليم بذات الصدور .

وهو الذي يقبل التوبة عمن تاب من عباده ، ويغفر السيئات ، ويعلم ما تفعلون أيها الناس .

وهو الذي يستجيب دعاء عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم أكثر مما طلبوا إكراماً وتفضلاً ، وأما الكافرون فليس لهم إلا العذاب الشديد .

أسرار التعريف والتنكير

يطالعنا النظم الكريم في هذه الآيات بأسلوب الخطاب : ﴿ ترى ﴾ والخطاب هنا لنبينا ﷺ إشارة إلى أن هذا الأمر لا يفهمه حق الفهم ويوقن به حق اليقين غيره ﷺ ، أو الخطاب عام يشمل كل من يصح أن يخاطب، إشارة إلى أن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يختص به أحد دون أحد[1].

وفيه إشارة أيضاً إلى الرغبة في تعميق هذه الصورة الفظيعة المنكرة في وجدان كل راءٍ لتكون زجراً بليغاً للناس جميعاً[2] .

ثم يأتي تعريف ﴿ الظالمين ﴾ بلام العهد ، فالنص على سبب إشفاقهم بالموصول وصلته : ﴿ ما كسبوا ﴾ تهويلاً وتفظيعاً لشأن هذا الكسب السيئ الذي يملأ قلوب أصحابه خوفاً وهلعاً حينما يرونه يوم الجزاء .

وتأمل استخدام النظم الشريف لـ (ما) هنا دون (الذي) ، وما في ذلك من إيحاء بأنهم يُفجأون بأعمالهم حتى كأنهم يجهلونها ، أولم يكن لهم عهدٌ بها .

ومن بلاغة النظم في هذا السياق أن جاء بالصلة على صيغة المضي، تناسباً مع تحقق الكسب وانتهاء زمانه بانتهاء الحياة الدنيا ، وأيضاً حذف عائد الصلة ، وهو ضمير المفعول ، ليتعانق هذا الحذف مع ما توحي به (ما) من الكثرة والتهويل في وصف كسبهم السيئ بالكثرة التي لا تعد .

والتعريف بضمير الغيبة في : ﴿ وهو واقعٌ بهم ﴾ متناسب مع مقام الغيبة الذي يجرى عليه نسق الأسلوب، والضمير ﴿هو﴾ عائد إلى ﴿ ما كسبوا ﴾ ، والكلام

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/٦٢٢ .

(٢) راجع : خصائص التراكيب ص١٩٣ .

على تقدير محذوف ، أى : ووباله واقعٌ بهم[1]. والنظم القرآني أبلغ من هذا التقدير ؛ لأنه يوحي بأن الكسب نفسه هو الذي سيتحول إلى آلة تعذيب يعذب بها أصحابه .

وتأمل مقابل هذا الإشفاق للظالمين ، وكيف عبَّر النظم القرآني عن حال المؤمنين في ذلك اليوم :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ . بتعريف المسند إليه بطريق الموصولية ، للإشارة إلى وجه بناء الخبر المترتب على ما اشتملت عليه الصلة من معانٍ ، وقد جاء الخبر :﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ جزاءً حسناً على ما قدموا لأنفسهم في حياتهم الدنيا من الإيمان والأعمال الصالحة .

ثم تأمل كيف اختيرت الروضات ، وهى أطيب بقاع الجنة وأحسنها، ثم أضيفت إلى الجنات، إضافة تنبئ ــ كما ذكر الشيخ زادة رحمه الله ــ عن امتياز المضاف عن المضاف إليه[2] .

وتأمل كيف جئ باللفظين مجموعين ، إمعاناً في الإكرام ، ومبالغة في الامتنان ، فهم ليسوا في روضة الجنة وإنما هم في روضات الجنات، ولك أن تستشعر ما يثيره المضاف : ﴿ رَوْضَاتِ ﴾ في النفوس من تشويق وتلهف يجعلها تهفو بشغف إلى رؤية هذه الروضات والتنزه فيها.

ثم انظر إلى أسمى درجات الرضا والتفضل بفتح باب المشيئة أمام المؤمنين من رب العالمين ليختاروا ما يشاؤون:﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : لهم وحدهم ما يشاؤون ، والتعريف هنا بالموصول ﴿ ما ﴾ لإفادة العموم ، ثم يزداد العموم

---

(١) راجع : الكشاف ١٣١/٤ .

(٢) راجع : حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى ٤١٩/٧ .

عموماً بمجئ الصلة مشتقة من المشيئة ، توسيعاً لمنافذ الإرادة والرغبة ، وزيادة في الإكرام والتفضل ، مع الدلالة على التجدد والاستمرارية من خلال صيغة المضارعة .

ثم يأتي التعريف بالإضافة في ﴿ رَبِّهِمْ﴾ تشريفاً للمضاف إليه ، وإعلاءً لمكانته ، والإضافة هنا إلى لفظ (رب) بما توحيه الكلمة من معاني التعهد والرعاية ، وما تنشره في النفوس من إحساس بالأنس والطمأنينة .

و﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ظرف متعلق بالجار والمجرور ﴿ لهم ﴾ وليس بالصلة ﴿يَشَاؤُونَ﴾ والمعنى : ما يشاؤون من النعيم والثواب مستقر لهم عند ربهم[1] .

ثم تختتم الآية بتعريف المسند إليه باسم الإشارة، ثم ضمير الفصل بعده ، فتعريف المسند بلام الجنس : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ .

والإشارة هنا بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي يشار به للحس البعيد ، والمشار إليه هنا معنوي قريب ، وذلك لتعظيم وتفخيم شأن ما فيه المؤمنون من نعيم مقيم في روضات الجنات ، إيماء إلى بعد منزلته ، وعلو مكانته ، ونقلاً له من عالم الغيب إلى عالم الحس والمشاهدة ، وإشارة إلى أنه لن يصل إليه من الخلق إلا ذوو المراتب العليا وهم عباد الله المؤمنين العالمين ، ودلالة ـ كما يرى الرازي رحمه الله ـ على أن كل الأشياء حاضرة عنده ـ تعالى ـ مهيأة[2] .

أما تعريف المسند بلام الجنس ، فللمبالغة في وصف هذا النعيم بأنه وحده هو الفضل الكبير ، وقد كوَّنَ هذا التعريف مع تعريف المسند إليه بالإشارة أسلوب قصر ، والقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف ، حيث قصر صفة الفضل الكبير على المشار إليه ، قصراً حقيقياً مبنياً على المبالغة ؛ إذ النفي فيه

---

(١) راجع : الكشاف ١٣١/٤ ، والبحر المحيط ٥١٥/٧ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٦٤ .

عام ، ورضوان من الله على المؤمنين في الجنة أكبر من التنعم في روضات الجنات كما أخبر سبحانه.

وجئ بضمير الفصل تأكيداً وتقريراً لهذا القصر ، والجملة تذييل مقرر لرحمة الله تعالى للمؤمنين وتفضله عليهم بدخولهم الجنة .

ويمضي بنا النظم الكريم على هذا النمط من أساليب التعريف مستخدماً اسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ مرة أخرى في صدر الآية التالية : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ لكنه يقترن هذه المرة بأسلوب التعريف بالموصولية ، ليتآزر الأسلوبان في تعظيم وإجلال المشار إليه ، وهو مظهر النعيم المذكور في الآية السابقة .

واسم الإشارة هنا مؤكد لنظيره الذي قبله ، أي ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنة هو أيضاً بشرى لهم من ربهم في الحياة الدنيا[1] .

ومن الملحوظ هنا التعبير باسم الموصول ﴿ الذي ﴾ بدلاً من (ما)، إذ يمكن في غير القرآن أن يقال : ذلك ما يبشر الله عباده . ويستقيم المعنى ، لكنه جئ بـ ﴿ الذي ﴾ في هذا السياق لمعرفة المخاطبين له من خلال الإشارة إليه في الآية السابقة ، يقول عبد القاهر رحمه الله : " فإن قلت : قد يؤتى بعد (الذي) بالجملة غير المعلومة للسامع، وذلك حيث يكون (الذي) خبراً، كقولك : هذا الذي كان عندك أمس ، وهذا الذي قدم رسولاً من الحضرة، أنت في هذا وشبهه تعلم المخاطب أمراً لم يسبق له به علم ، وتفيده في المشار إليه شيئاً لم يكن عنده، ولو لم يكن كذلك ، لم يكن (الذي) خبراً، إذ كان لا يكون الشئ خبراً حتى يفاد به ، فالقول في ذلك : أن الجملة في هذا النحو ، وإن كان المخاطب لا يعلمها

---

(١) راجع : التحرير التنوير ٢٥ / ٨٠ .

لعين من أشرت إليه ، فإنه لابد من أن يكون قد علمها على الجملة وحُدِّث بها[1].

فإن كان المخاطبون لا يعلمون أن تنعم المؤمنين في روضات الجنات بشرى من الله ، بمعنى أنهم لا يعلمون الصلة على جهة التفصيل، فإنهم يعلمونها على جهة الإجمال قبل نزول الآية ، فلزم لذلك أن يؤتى بالموصول (الذي) دون (ما) لأنه هو الوحيد الذي يؤتى به عندما تكون الصلة معروفة بالنسبة للمخاطب .

وبالتأمل في جملة الصلة: ﴿يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ نجدها قد جاءت على صيغة المضارعة ، دلالة على استمرارية البشارة من الله تعالى لعباده المؤمنين وتجددها في كل جيل وقبيل من خلال كتب الله التي أنزلها على رسله متضمنة هذه البشارة، كما نجد في الصلة إسناد البشرى إلى الله عزَّ وجلَّ،لا إلى الرسل كما قال ـ تعالى ـ في حقهم في آية أخرى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾[2] تعميقاً لأنس المؤمنين بهذا النعيم ، وتطميناً لهم بأنهم ملاقوه في الجنة لا محالة ؛ لأنه بشرى من الله رب العالمين ، جاءت بطريق الوعد الذي لا يتخلف ، وإن كانت بشرى الأنبياء بشرى من الله ، إلا أنها جاءت بواسطة ، وهذه جاءت من غير واسطة .

ولما كانت الصلة متضمنة بشارة الله لعباده المؤمنين بهذا النعيم المقيم ، فقد أفاد التعريف بالموصولية التعظيم والتفخيم لشأنه ، ولا شك في أن حذف عائد الصلة هنا جعل الأسلوب أكثر دقة ووجازة .

هذا وقد اشتملت جملة الصلة في هذا الأسلوب على طريقين آخرين من طرق التعريف ، فقد اشتملت على طريق التعريف بالإضافة في (عباده) ، حيث أضيف المفعول إلى الضمير العائد إلى لفظ الجلالة ، إضافة توحي بالتشريف والتقريب والاجتباء ، وقد غلب ـ كما يقول الطاهر رحمه الله ـ في القرآن الكريم إضافة لفظ العباد بصيغة الجمع إلى لفظ الجلالة أو ضميره في معرض التقريب وترفيع

---

(١) راجع : دلائل الإعجاز ص٢٠٠ : ٢٠١ .

(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٥ .

الشأن[1] . كالمعرف الذي نحن بصدده .

وقد اشتملت جملة الصلة على طريق التعريف بالموصولية في وصف المفعول (عباده) بقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقد وقفنا على مثل هذا الأسلوب وذكرنا بعضاً من الأسرار البلاغية التي ينطوي عليها[2] .

وبذلك تكون الجملة الكريمة : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قد اشتملت على كثير من أساليب التعريف التي منحتها إيحاءات وظلالاً ، حيث بدأت بأسلوب التعريف بالإشارة ، فالتعريف بالموصولية ، والذي اتسعت صلته لتشمل طريق التعريف بالإضافة ، وطريق التعريف بالموصولية ، لتصل الجملة بهذا وبغيره من خصائص النظم البليغ ، إلى درجة من البلاغة تعجز عنها قوى البشر ، وتقصر دون وصفها الألسن والأقلام .

وحسبنا في هذا المقام أن ننقل ما ذكره الرازي ــ رحمه الله ــ في دلالة هذه الآية والآية قبلها على تعظيم ثواب المؤمنين ، لأنه كلام طيب صادر عن فهم ثاقب ، يقول رحمه الله : " واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه :

الأول : أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاءً ، دلَّ ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله : لهم ما يشاؤون يدخل في باب غير المتناهي ؛ لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من له الكبرياء

---

(١) راجع : التحرير والتنوير .

(٢) راجع : ص ٢٥/٨١ من البحث .

والعظمة على الإطلاق كان في غاية الكبر .

الرابع : أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال : ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول إليها"[1].

ومن الملاحظ في هذا المقام أن الآية السابقة ذكر فيها لفظ (رب) مضافاً إلى ضمير المؤمنين : ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، وأما في هذه الآية التي نحن بصددها فقد ذكر فيها لفظ الجلالة (الله) ، وأضيف (عباد) إلى ضميره : ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ ، وذلك لأن الآية الأولى تتحدث عن نعيم المؤمنين في الجنة، والآية الثانية تتحدث عن بشارة الله لهم في الدنيا ، وسياق الآيات التي فيها خطاب المشركين في الدنيا في هذه السورة يقرر وحدانية الله ، وحيث كان المقام مقام تقرير الألوهية كان ذكر لفظ الجلالة (الله) ، لأن معناه : المعبود الحق ، ولم يطلق على غير الله ، فإذا كان المقام مقام تعهد وملكية وتقريب ، كان استخدام لفظ (رب)[2] .

وتأمل الفرق بين المقامين في خطاب الله لموسى عليه السلام حينما هاله النور بالوادي المقدس : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾[3] ، وخطابه له حينما أراد إعلامه بأنه الإله الواحد ، وأمره بالعبادة وإقام الصلاة :﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [4] .

---

(١) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٦٥ .

(٢) راجع في الفرق بين المقامات التى يستخدم فيها اللفظان الكريمان :الكشاف ١٤/١ : ١٧ .

(٣) سورة طه من الآية : ١٢ .

(٤) راجع : رسالتنا في الدكتوراه :(مظاهر الطبيعة في الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية) ص٢١٣ . مخطوطة بكلية اللغة العربية بإتياي البارود ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

وبعد هذه البشارة الإلهية من الواحد سبحانه لعباده المؤمنين العاملين ينتقل بنا النظم الكريم إلى خطاب سيد المرسلين وخاتم النبيين : ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي : لا أسألكم على البلاغ بشارة ونذارة (أجراً) بالتنكير الدال على التقليل ، أي : لا أسألكم عليه أجراً وإن قلَّ ، ومن الممكن حمل التنكير هنا على العموم ، أي : لا أسألكم عليه أجراً أي أجر، ثم استثنى من ذلك ﴿ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بلام العهد الذهني في الاثنتين والاستثناء هنا إما أن يكون متصلاً ، أي : لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي ، ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة، لأن قرابته قرابتهم ، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ، وإما أن يكون منقطعاً ، أى : لا أسألكم أجراً قط ، ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم[1] .

و (من) في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ شرطية أفادت العموم ، كما أفاده مع الإفراد تنكير المفعول (حسنة) خلافاً لمن خصصها بالمودة التي كانت من أبى بكر الصديق ﷺ لأهل البيت ، والظاهر فيها العموم ليشمل أي حسنة كانت؛ إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى ، دلَّ ذلك على أنها تناولت المودّة تناولاً أوّلياً ، كأنَّ سائر الحسنات لها توابع[2] . ونكر (حسناً) تفخيماً وتعظيماً .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يأتي تنكير المفعول ليفيد استعظامهم افتراء الرسول ﷺ ــ حسب زعمهم لعنهم الله لعناً كبيراً ــ على الله ، أي : ما جاء به ﷺ من القرآن ما هو إلا افتراء عظيم منه على الله .

---

(١) راجع : الكشاف ١٣١/٤ ، وتفسير البيضاوى بحاشية الشيخ زاده ٤٢٠/٧ .

(٢) راجع : الكشاف ١٣٣/٤ .

وتأتى بقية الآية لترد اتهامهم هذا لرسول الله ﷺ :﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ويسلك النظم هنا في التعريف بالإضمار طريق الالتفات ، حيث انتقل من مقام الغيبة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى .. ﴾ إلى مقام الخطاب : ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ انتقالاً يتناسب مع خطورة المعنى الذي يحمله الأسلوب ، حيث يستحضر النفس البشرية وهى في أعلى مراتبها ، لتمثل أمام ربها لسماع حكمه فيها لو كان الأمر كما يقولون ، والمعنى ــ كما ذكره الزمخشري رحمه الله ــ فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى لا تفتري عليه الكذب ، فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم[1] .

والأسلوب ينفى عنه ﷺ الافتراء على الله بطريق بليغ ؛ لأن مؤداه ــ كما يقول الزمخشري رحمه الله ــ استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم[2].

وجملة : ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ.... ﴾ تذييل يؤكد دفع الافتراء عنه ﷺ ، ومعناها ــ كما ذكر الرازي رحمه الله ــ ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق ، فلو كان محمدٌ ﷺ مبطلاً كذاباً لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ، ولمَّا لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس من الكذابين المفترين على الله ، ويجوز أن يكون هذا وعداً من الله لرسوله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ، ويثبت الحق الذي كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليه [3] .

وعلى المعنى الأول تكون اللام في (الباطل والحق) لاستغراق الجنس ، أي يمحوا الله كلَّ الباطل ، ويحق كلَّ الحق ، وعلى المعنى الثاني تكون للعهد العلمي .

---

(١) راجع : الكشاف : ٤: ١٣٤ .

(٢) راجع : السابق الصفحة ذاتها .

(٣) راجع : التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩ .

وفي قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ... ﴾ يأتي تعريف المسند إليه بطريق الإضمار (هو) تناسباً مع النسق الذي جرى عليه الأسلوب من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ في الآية قبل السابقة .

ثم يأتي تعريف المسند بالموصولية : ﴿الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ والموصول هنا هو (الذي) ليفيد اتصاف الله تعالى بمضمون الصلة ، وأنها شأن من شؤونه ــ تعالى ــ عرف به ، ثابت له لا يتخلف ؛ لأنه المناسب لحكمته ، وعظمة شأنه، وغناه عن خلقه .

وإيثار جملة الصلة بصيغة المضارع لإفادة تجدد مضمونه وتكرره؛ ليعلموا أن ذلك وعد لا يتخلف ولا يختلف [1] .

وفي جملة الصلة نرى المفعول (التوبة) قد عُرِّف باللام لاستغراق جنس التوبة المكتملة الشروط ودخولها في قبول الله تعالى أياً كان الإثم المتوب عنه ، ومثله في الاستغراق تعريف (السيئات) باللام ، لتدخل في العفو كل السيئات بما فيها الكبائر إذا تيب عنها ، وهذا هو رأى الزمخشري رحمه الله [2] .

أما الطاهر ــ رحمه الله ــ فيرى أن الاستغراق هنا عام مخصوص بغير الشرك[3].

ورأى الزمخشري أولى ، لأن المشرك إذا تاب عن شركه دخل في زمرة عباد الله المؤمنين ، فلا يوصف بعد إيمانه بأنه مرتكب لكبيرة لا تغفر .

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يتعانق التعريف باسم الموصول (ما) مع حذف المفعول من الصلة ، في الدلالة على عموم واتساع علم الله لكل ما

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٨٩ .

(٢) راجع : الكشاف ٤/١٣٥ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٩٠ .

يفعله العباد .

ومجئ الصلة على صيغة المضارعة يتناسب مع إحاطة علم الله لما كان وما سيكون من أفعال ، والخطاب هنا عام يشمل كل سامع .

وفي الآية الأخيرة من هذه الآيات : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ يأتي تعريف المسند إليه بالموصولية ، وذلك للإشارة إلى وجه بناء الخبر المترتب على الإيمان والعمل الصالح ، وهو استجابة الله تعالى لهم وزيادتهم من فضله ، بالإضافة إلى التركيز على ما تضمنته الصلة من قرن الإيمان بالعمل الصالح .

ويأتي التعريف بالإضافة في : (من فضله) تعظيماً للمضاف وإعلاءً له ، وحملاً للنفوس على التعلق به والوصول إليه .

وتختتم الآية ببيان جزاء الكافرين: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بـ التعريف باللام لاستغراق جنس الكافرين ودخولهم في كل مكان وزمان تحت حكم واحد ، وتنكير (عذاب) ووصفه بالشدة ، للتهويل والتفظيع والتخويف .

تصريف الرزق والآيات بقدرة الله وحكمته

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

تتحدث هذه الآيات عن تصريف الرزق بين العباد ، وتصريف آيات الله في الكون ، وتشير إلى أن هذا التصريف يجرى بموجب علمه تعالى وقدرته .

والآية الأولى نزلت في قوم من أهل الفاقة من المسلمين تمنوا سعة الرزق ، فقال جل ثناؤه : ولو بسط الله الرزق لعباده فوسعه وكثره عندهم ، لبغوا في الأرض ويتجاوزوا الحد الذي حده لهم ، ولركبوا فيها ما حظره عليهم ، ولكنه ينزّلُ رزقهم بقدر كفايتهم ، فهو العالم بطباع الناس وما يصلحها من الغنى أو

الفقر، وقيل : نزلت في أهل الصفة حينما تمنوا أن يوسع الله لهم في أرزاقهم [1].

ولما بيَّن تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم ، بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنه لا يمنعهم منه فقال : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث ... ﴾[2] .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، ومنها ــ وهى أعظمها ــ خلق السماوات والأرض وما فيهما من كائنات، ثم تعرج إلى قضية البعث ، ثم تتحدث عما يلحق الناس في الحياة من مصائب ، وتشير إلى أنها مما كسبت أيديهم ، وأن الله يعفو عن كثير ، أنهم ليسوا بمعجزي الله في الأرض حتى لا يقدر عليهم ، ولكنهم حيث كانوا في سلطانه وقبضته ، جارية فيهم مشيئته .

ثم يعود النظم إلى الحديث عن تصريف الآيات مرة أخرى ، ويسوق في هذه المرة آية من آيات الله الباهرة ، لو تدبرتها العقول لرأت شيئاً أعظم من أن تدرك كيفيته ، وهذه الآية هي السفن الضخمة التي تجرى بحمولتها على ظهور البحار، وتشير إلى أن مجريها بهذه الكيفية هو الله الذي يرسل الرياح إذا شاء لها أن تجري ، وإن يشأ يسكن هذه الرياح فتقف مكانها ، أو يعطبها فتغرق بأصحابها ، ثم تنوه الآيات بأن في هذا التصريف دلالة على وحدانية الخالق وقدرته يهتدي إليها كل صبار شكور .

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٥/ ١٩ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٢ .

أسرار التعريف والتنكير

من يتأمل هذه الآيات يجدها قد استهلت استهلالاً شرطياً ، حيث سلك النظم الكريم فيها طريق الشرط بـ (لو) : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ، ثم جاء الاستدراك : ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ وفي أثناء الشرط والاستدراك جاءت أساليب التعريف والتنكير التي أسهمت بشكل كبير في تكوين الأسلوب .

ففي أسلوب الشرط جاء التعريف بالعلمية في المسند إليه ، وهو لفظ الجلالة، وطريق التعريف باللام في المفعول (الرزق) ، وطريق التعريف بالإضافة في متعلق البسط (لعباده) ، وطريق التعريف باللام في (الأرض) .

ومما هو واضحٌ أن سياق الآية يتحدث عن قضية مهمة في حياة الناس ، وهي قضية تصريف الأرزاق بين العباد بقدر ، ولمَّا كان الأمر كذلك جاء المسند إليه معرفاً بطريق العلمية ، لإحضاره في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به ، تقوية للإسناد ، وتعظيماً للمسند ، وهو بسط الرزق ، وإشارة إلى أنه من اختصاصات المسند إليه سبحانه ، ولذلك عدل النظم الكريم عن طريق الإضمار التي جرى عليها نسق الأسلوب في الآيات السابقة ، إلى طريق الإظهار والعلمية، ولو جرى على النسق السابق لقال : ولو بسط لعباده الرزق .

ومجيء لفظ الجلالة مكرراً بدلاً من الضمير في بعض مقامات القرآن الكريم ظاهرة أسلوبية أشار إليها أستاذنا د / صبَّاح دراز بقوله : " وقد نجد في القرآن تكراراً للفظ الجلالة (الله) في مكان الإضمار ، في مقامات خاصة ، قوية ، أو غريبة عن الأذهان ، أو محل شك أو إنكار عند الكافرين، أو في بسط آثار القدرة الجبارة في الكون ، والحيلة، أو الدعوة إلى شأن إسلامي خطير ، أو الترهيب والوعيد ، تعظيماً وحثاً على الانقياد ، ودفعاً إلى الاستجابة والتأثر ، إحساساً

للنفس بالتضاؤل أمام الله تعالى وآثار صفاته المقدسة "[1] .

ويأتي تعريف المفعول (الرزق) باللام لشمول الجنس واستغراقه ، كي يدخل في البسط المفترض كل أنواع الرزق التي بها يتحول الإنسان من حد الاعتدال إلى حد التجاوز والطغيان .

وتأمل كيف سلك النظم البليغ طريق الإضافة (لعباده) ، بإضافة العباد إلى الضمير العائد إلى لفظ الجلالة ، وكيف اختار لفظ العباد دون الناس ، إشارة إلى أن الناس مؤمنهم وكافرهم في قضية بسط الرزق أو قدره ، عباد الله يرزقهم جميعاً من غير تفرقة بين مؤمن وكافر دون أن يكون لهم أدنى حيلة أو قدرة .

ثم يأتي التعريف باللام في (الأرض) ليدل على العموم والشمول ، أعني عموم البغي المترتب على بسط الرزق للعباد كل أركان المعمورة ؛ لتصبح الأرض بهذا الأسلوب ساحة ظلم وطغيان وفساد .

وفي أسلوب الاستدراك جاء التنكير في : (بقدر) ، وطريق التعريف بالموصولية في : (ما يشاء) .

والتنكير هنا يفيد التعظيم والتفخيم ، إذ تصريف الأرزاق يجرى بقدر عظيم ، يقدره قادر عظيم الشأن والسلطان .

أما التعريف بالموصولية فلأن الصلة تدل على مطلق المشيئة ، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا ينزل شئ من الرزق إلا بمشيئته تعالى وإرادته .

وتأمل مجئ الصلة هنا مشتقة من المشيئة ، لا من الإرادة ، وذلك لتحمل دعوة ضمنية للعباد إلى الصبر على ضيق الرزق وعدم استعجاله، إذ المشيئة لا تكون إلا لما تراخى وقته ، أما الإرادة فتكون لما تراخى وقته ولما لا يتراخى[2] .

ثم تأمل الملاءمة الدقيقة بين صياغة الأفعال في هذه الجملة الشريفة: ﴿وَلَكِن

---

(١) راجع: علم المعانى لأستاذنا د/ صبّاح دراز ص٢٥٤ ، ٢٥٥ ، مطبعة التركي ــ طنطا ــ ١٩٩٧م.

(٢) راجع : الفروق اللغوية ص١٢٨ .

يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ والمعنى الذي تشير إليه ، إذ لما كانت الأرزاق متجددة حادثة بتجدد وحدوث المخلوقين ، ناسب أن يصاغ الإنزال والمشيئة على صيغة المضارعة الدالة على التجدد والاستمرارية .

وفي الآية التالية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا . . . ﴾ يأتي تعريف الطرفين بالإضمار والموصولية ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ، وهو نظير الأسلوب السابق : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ والموصول فيه كالموصول السابق ، جاء لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون الصلة ، وهي إنزال الغيث ، وأنها شأنٌ من شؤونه تعالى ، ثابتٌ له ، مختصٌ به، وجاءت الصلة على صيغة المضارعة ، تناسباً مع تجدد إنزال الغيث وحدوثه ، وصيغت على التضعيف تلاؤماً مع كثرة الوقوع والحدوث ، وعرف الغيث بلام العهد لإلف الناس له ، وتعلق نفوسهم به، خصوصاً أهل البيئات البدوية الذين نزل فيهم القرآن ابتداء ، وأوثر التعبير بالغيث على التعبير بالمطر ؛ لأن الغيث ــ كما يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله ــ لذيذ الاسم على السمع ، والمسمى على الروح والبدن ، تبتهج الأسماع بذكره ، والقلوب بوروده ، وماؤه ألطف المياه وأنفعها وأعظمها بركة ، وهو أرطب من سائر المياه ، يأتي عند شدة الحاجة إليه [1] .

وأيضاً فإن الغيث في اللغة لا يكون إلا بمعنى الماء النازل من السماء أو النبات الذي ينبت به ، فهو لا يعبر به إلا في مقام الرحمة ، بخلاف المطر فإنه يستخدم مجازاً في مقام التعذيب ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾[2] . ففي لسان العرب : " الغَيْثُ : المطر والكَلأُ وقيل الأَصلُ المطر ثم

---

(١) راجع : الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص٢٩٩ . نشر : مكتبة أسامة الإسلامية ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

(٢) سورة النمل الآية : ٥٨ .

سُمِّي ما يَنْبُتُ به غَيْثاً"[1]. والمَطَرُ: الماء المنسكب من السحاب وأمطرهم اللهُ مَطَراً أو عذاباً، ابن سيدهْ : أمطَرهم الله في العذاب خاصَّة ، وذكر الآية [2] .

ولما كان الغيث سبباً في الرزق ، نصت عليه الآية ، وهو ظاهرة كونية يقف الناس أمامها موقف العاجز الذي لا يستطيع الجلب أو الدفع ، لذلك فهو آية من آيات الله الناطقة بوجوده وقدرته .

وعرف المسند إليه في (قنطوا) بضمير الغائب تناسباً مع مقام الغيبة الذي يجرى عليه أسلوب الآيات ، والضمير عائد إلى (عباده) في الآية السابقة ، وخص النظم هذه الحالة من حالات تنزيل الغيث، وإن كان قد ينزل من غير قنوط، لأن إنزاله بعد القنوط ــ كما يقول الرازي رحمه الله ــ أدعى إلى الشكر[3]، وذكر القنوط هنا يتناسب مع دلالة المشيئة على تأخر نزول الرزق في الآية السابقة.

ويأتي التعريف بالإضافة في : (وينشر رحمته) لتعظيم وتفخيم شأن المضاف الذي يملأ القلوب أنساً وسكينة ، لإضافته إلى ضمير الغفور الرحيم ، والمقصود بالرحمة هنا ــ كما ذكر الشريف الرضي رحمه الله ــ الغيث المنزل لإحياء الأرض وإخراج النبت ، ونشره : عبارة عن إظهار النفع به وتعريف الخلق عواقب المصالح بوقعه[4] .

ثم يأتي تعريف الطرفين في جملة التذييل التي تؤكد مضمون الكلام قبلها: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ليقصر صفتي الولاية والحمد على الله ــ تعالى ــ وينفيهما عما سواه ، قصراً حقيقياً تحقيقياً .

وذكر صفتي (الولي الحميد) دون غيرهما لمناسبتهما ــ كما يرى الطاهر

---

(١) لسان العرب : مادة : (غيث) .

(٢) لسان العرب : مادة : (مطر) .

(٣) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٢ .

(٤) راجع : تلخيص البيان في مجازات القرآن ص٢٧٥ .

رحمه الله ــ للإغاثة ؛ لأن الوليَّ يحسن إلى مواليه ، والحميدُ يعطي ما يُحمد عليه[1] .

وفي الآية التالية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يأتي التعريف بطريق الإضافة في (آياته) ، وفي ﴿ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ليفيد المضاف من التعظيم والتفخيم ما لا يفيده أسلوب آخر ، حيث أضيف في الأسلوب الأول إلى ضمير الخالق العظيم سبحانه ، وأضيف في الأسلوب الثاني إلى السموات والأرض ، وخلقهما ــ كما أخبر سبحانه ــ أكبر من خلق الناس[2] .

وجئ بـ (من) البيانية قبل النكرة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ لبيان الإبهام الموجود في الموصول ونكر (دابة) لإفادة الكثرة مع العموم ، تناسباً مع الكثرة الكاثرة من مخلوقات الله التي تنتشر في السموات والأرض ، ولفظ (دابة) مشتق من الدبيب ، وهو المشي الخفيف[3] ، فكيف صح إطلاقه على من في السموات من الملائكة ؟ . يقول الزمخشري – رحمه الله – في الجواب عن هذا السؤال : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه ، كما يقال : بنوتميم فيهم شاعرٌ مجيد ، أو شجاعٌ بطل ، وإنما هو في فخذ من أفخاذهم ، أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله نُوَيْسٌ منهم . ومنه قوله تعالى:﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[4] وإنما يخرج من الملح ، ويجوز أن يكون للملائكة – عليهم السلام – مشي مع الطيران ، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي . ولا يبعد أن يخلق في السماوات حيواناً

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ٩٦ .

(٢) راجع : قوله تعالى في سورة غافر{ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } الآية : ٥٧ .

(٣) راجع : مفردات الراغب (دبب) .

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٢ .

يمشي فيها مشي الأناسي ، على الأرض[1] .

وقد أعاد النظم الضمير إلى (دابة) بضمير العقلاء في :﴿ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴾ لأن الذي تتعلق الإرادة بجمعه في المحشر للجزاء هم العقلاء[2] .

وتعريف المسند إليه بالضمير (هو) متناسب مع مقام الغيبة الذي يجرى عليه أسلوب الآيات .

ويأتي التنكير في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ... ﴾ مرتين ، الأولى في (مصيبة) ، وقد أفاد العموم ، وجئ بـ (من) قبل النكرة لبيان الجنس ، أى ما أصابكم من جنس المصائب أى مصيبة فبما كسبت أيديكم ، والثانية في (كثير) ، وقد أفاد بمعونة الاشتقاق الكثرة ، إشارةً إلى أن ما يعفو الله عن عباده من السيئات في الدنيا فلا يوقع بهم المصائب لأجله أكثر مما يؤاخذهم به.

ويمضي النظم الكريم في استخدام صيغة التنكير الدالة على العموم ، فيأتي بالنكرة : ﴿ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ في سياق النفي : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لينفى جنس الولاة والناصرين من دون الله ، وتأتى (من) في السياق لتؤكد النفي ، وتوسع دائرة العموم المفاد من النكرة ، لينفى الأسلوب بهذه الصياغة جميع أفراد الجنس على جهة الإحاطة والشمول .

ثم يسلك النظم طريق التعريف في الآية التالية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ وينتقل فيها من طريق التعريف بالإضافة في (آياته)، والذي أفاد تعظيم المضاف ، إلى طريق التعريف بلام العهد في: (الجوار ــ البحر ــ الأعلام) وذلك لعهد الناس بهذه الأشياء وإلفهم لها .

---

(١) راجع : الكشاف ١٣٧/٤ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٣ ، التحرير والتنوير ٢٥ / ٩٦ .

والجواري : السفن ، والأعلام : الجبال ، وتعريفهما بلام العهد في سياق التشبيه يجعل المتلقي أكثر إدراكاً وفهماً لوجه الشبه ــ وهو الارتفاع والضخامة ــ لأنه يلحق له شيئاً معهوداً بشئ معهود مثله ، ولو نُكِّر الطرفان أو أحدهما لفاتت هذه المزية .

ويأتي التعريف بأسلوب الإشارة في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تعظيماً للمشار إليه ، وهو تصريف آيات السفن جرياً وركوداً ، والإشارة هنا بما يشار به للبعيد ، إيماء إلى بعده عن مقدور البشر ، وأنه لا يكون إلا بقدرة مصرف الآيات سبحانه ، ومع التعظيم بالتعريف يأتي التعظيم بالتنكير في (آيات) ، مع الدلالة على الكثرة من خلال الصيغة، ثم يأتي التنكير في : ﴿ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ليفيد العموم، مع سبق النكرة بلفظ (كل) ليدخل هذا العموم في دائرة من الإحاطة والشمول .

وتأمل ختام الآية بهذين اللفظين الدالين على المبالغة في الاتصاف بالصبر والشكر ، وما في ذلك من التنويه بحال المؤمن التي يجب أن يكون عليها في السراء والضراء . وهو ختام مناسب لما ذكر قبله تمام المناسبة ، فإجراء السفن نعمة تستوجب الشكر ، وإيقافها محنة تستوجب الصبر .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يجوز أن تكون (ما) مصدرية، فيكون التقدير : أو يوبقهن بسكبهم ، ويجوز أن تكون موصولة، فيكون التقدير : أو يوبقهن بالذي كسبوا ، وحملها على المصدرية أرجح ، وعلى كلا الاحتمالين فإن في الأسلوب نصاً على سبب الإهلاك ، وهو الكسب السئ ، وهذا يتناسب مع ما أشارت إليه آية : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾، ولا يخفى أن (ما) في الآية التي بين أيدينا مثل (ما) الثانية في الآية السابقة ، تحتمل كلتاهما المصدرية والموصولية مع ترجيح المصدرية فيهما ، وأن التنكير في (كثير) مثله مثل التنكير في نفس الكلمة هناك ، يدل كل منهما على الكثرة التي لا

يحصيها ولا يحيط بها إلا علم الله .

وفي الآية التالية : ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ يأتي التعريف بالموصولية ، للإشارة إلى وجه بناء الخبر وأنه سيكون عقاباً لهم على مجادلتهم في آيات الله ، وقد جاء الخبر كذلك في ختام الآية : ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ حيث نفى عنهم أن يكون لهم محيد ومفر عن عذابه بطريق بليغ ، إذ أتى بالمنفى (محيص) منكراً مسبوقاً بـ (من) في سياق النفي ، ليبلغ الأسلوب الغاية في تأكيد نفى جنس المحيص عنهم .

وبالتأمل في الصلة نجدها قد جاءت على صيغة المضارعة ﴿ يُجَادِلُونَ ﴾ ، وقبلها جاء التعبير عن علم الله بهم بصيغة المضارعة أيضاً ، وذلك للإشارة إلى استمرار تجدد تعلق العلم بكل مجادل كلما حصل جدال[1] .

ولما كان مقام العظمة شديد المنافاة للمجادلة ـ كما يقول البقاعي رحمه الله ـ سلك النظم الكريم طريق التعريف بالإضافة في: ﴿ آيَاتِنَا ﴾ فأضاف آيات إلى ضمير العظمة ، لفتاً إليها ، وتعظيماً لها ، وإعلاء لمكانتها عن أن تكون محلاً للجدال أو الشك .

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/٦٣٥ .

منهج المؤمنين القويم كما ترسمه السورة الكريمة

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ .

لما بين سبحانه أن جميع النعم من الغيث وآثاره المترتبة عليه ، ومن نشر الدواب في الأرض ، وإجراء السفن في البحار ، من الأمور المتغيرة التى يلحقها الزوال ، بيَّنَ هنا أن ما يعطاه الناس من ذلك ما هو إلا متاع لهم في الدنيا ، وأن ما أعده للمؤمنين منهم من الأجر والثواب في الآخرة هو خير وأبقى ، ثم بين سبحانه المنهج القويم الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون الفائزون بهذا الأجر .

فبدأ بالتوكل عليه سبحانه بعد الإيمان به ، ثم اجتناب الكبائر والآثام والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، مع الاستجابة لأوامره ونواهيه ، وإقام

الصلاة ، والتشاور في أمور الدين والدنيا ، والإنفاق من رزقه الذي آتاهم ، ثم الغفران لبعضهم عند الغضب ، والانتصار من المجرمين عند البغي بالمماثلة من غير حيف ولا ظلم ، ثم بين سبحانه داعياً إلى العفو والصفح عند الظلم ، أن الصبر والإصلاح والغفران خير من الانتصار ، وأن ذلك من عزم الأمور التي لا يقوى عليها إلا من ثبتت فيهم صفة الإيمان ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا منهم .

أسرار التعريف والتنكير

سلك النظم الكريم في هذه الآيات عدة طرق من طرق التعريف التي كان لها دور في الكشف عن أدق ما يلوح به الأسلوب من معانٍ وأسرار، كما سلك طريق التنكير في بعض المواقف التي تتطلب دلالاتٍ خاصة لا تتأتى إلا به .

فقد سلك طريق التعريف بالإضمار في ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾ لفتاً وتنبيهاً إلى ما سيأتي بعد هذا الخطاب ، وإشارة إلى أنه من الأمور المهمة التي يجب ألا تغيب عن قلوب المؤمنين .

ثم يأتي تنكير (شئ) مسبوقاً بـ (من) البيانية لبيان الجنس وعمومه ، والمعنى : ما أوتيتم من شئ أي شئ في حياتكم الدنيا ، فما هو إلا متاعٌ قليلٌ حقيرٌ من أمتعتها الفانية بالنسبة لما عند الله في الآخرة .

و(ما) هنا مثل (ما) الأولى في آية : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ ﴾ موصولة ضمنت معنى الشرط ، ولذلك اقترن جوابها بالفاء ، ولم تكن شرطية لأن المعنى على الإخبار لا على التعليق ، وإنما تضمنت معنى الشرط وهو مجرد ملازمة الخبر لمدلول اسم الموصول(١).

ثم يأتي التعريف بالموصولية في ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ للإشارة إلى وجه بناء الخبر توصلاً إلى تعظيمه وتفخيمه ، وقد جاء الخبر ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ منكراً للتعظيم والتفخيم ، لتجتمع فيه العظمة والفخامة من جملة الصلة : ﴿عِندَ اللَّه﴾ ، واشتقاق اللفظ من الخيرية والبقاء ، ومجيئه منكراً ، يقول البقاعى رحمه الله : ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الجامع للترغيب في ذكر آثار الأوصاف الجمالية والترهيب من آثار النعوت الجلالية فقال : ﴿ عِندَ

---

(١) راجع : الكشاف ١٣٩/٤ ، والتحرير والتنوير ٢٥ / ١٠٩ .

أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلماً[1] .

ثم يأتي تعريف من كان لهم هذا الأجر الذي هو خير وأبقى بالموصولية: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ، ثم يعطف على هذا الموصول ما جاء بعده: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ....﴾ و ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ و﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ...﴾ توصلاً إلى وصفهم بالأوصاف التي اشتملت عليها جملة الصلة .

ومن الملحوظ في نسق هذه الآيات أن قوله تعالى : ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قد عطف على جملة الصلة : ﴿آمَنُوا ﴾ ، ولم يعطف على الموصول كما في الآيات التي جاءت بعد ، وذلك لأن التوكل على الله متمم للإيمان ، فكأنهما شئ واحد، إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر ، يقول الطاهر رحمه الله : " فعطف على الصلة أنهم يتوكلون على ربهم دون غيره ، وهذا التوكل إفراد الله بالتوجُّه إليه في كل ما تعجز عنه قدرة العبد ، فإن التوجه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد ؛ لأن المشركين يتوكلون على آلهتهم أكثر من توكلهم على الله، ولكون هذا متمِّماً لمعنى (الذين آمنوا) عطف على الصلة ولم يُؤت معه باسم موصول بخلاف ما ورد بعده "[2] .

وعن عطف باقي الموصولات على الموصول الأول يقول رحمه الله – : " أُتبع الموصول السابق بموصولات معطوف بعضُها على بعض كما تعطف الصفات للموصوف الواحد .... فالمقصود من ذلك : هو الاهتمام بالصلات ، فيكرر الاسم الموصول لتكون صلتُه معتنىً بها ، حتى كأنَّ صاحبها المتّحد منزّلٌ منزلة ذوات ، فالمقصود : ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين هذه صفاتهم ، أي : أتْبعوا

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/٦٣٧ .

(٢) راجع التحرير والتنوير ٢٥ / ١٠٩ .

إيمانهم بها "[1] .

فهو يلحق عطف الموصولات في هذا السياق بعطف الصفات بعضها على بعض وهى لموصوف واحد كقولنا : جاءني زيد الشجاع والكريم والمهذب ، وذلك إذا أريد التركيز على كل صفة من هذه الصفات وإبرازها فيه على جهة الاستقلال مبالغة في اتصافه بكل واحدة منها على حدة .

هذا عن توالى الموصولات معطوفة في هذه الآيات كأسلوب عام يتطلب منا وقفة مستقلة ، فإذا ما تجاوزنا هذه الوقفة إلى ما تحتوى عليه كل آية من أساليب التعريف أو التنكير ، فإننا نجد في الآية الأولى : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ طريق التعريف بالإضافة في (ربهم) وقد أفاد تعظيم المضاف إليه ، وهو طريق ملائم لذكر التوكل في هذا السياق ، فهم يتوكلون على خالقهم وهم يعلمون أنه مالكهم وراعيهم وحافظهم ، وهذا أدعى لأن يصل التوكل إلى أرفع درجاته ، وأخلص حالاته .

وتأتى الآية الثانية : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ مشتملة على طريق التعريف باللام في : ﴿ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ لاستغراق الجنس ، أى : يجتنبون جنس كبائر الإثم وجنس الفواحش، والمراد بكبائر الإثم ــ كما ذكر الرازي رحمه الله ــ ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات، وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية[2].

وقرئ: (كبير الإثم) وفسره ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ بالشرك، وفسر بعضهم الفواحش بالزنا، وجمع للمبالغة، أو باعتبار تعدد من يصدر عنه[3].

وفي الآية نفسها يأتي طريق التعريف بالإضمار في : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ

---

(١) راجع : المرجع السابق ٢٥ / ١١٠ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٧ .

(٣) راجع : جامع البيان ٢٥ / ٢٣ ، والكشاف ١٣٩/٤ .

يَغْفِرُونَ ﴾ بتقديم المسند إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعلي ﴿يَغْفِرُونَ﴾ في الجملة المثبتة ، تقديماً يفيد القصر والاختصاص ، والمعنى : هم دون غيرهم الذين يغفرون عند الغضب ، يقول الزمخشري ــ رحمه الله ــ في تحليل هذه الجملة الشريفة وبيان وجه القصر فيها : " هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب ، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس ، والمجيء به وإيقاعه مبتدأ وإسناد ﴿ يَغْفِرُونَ ﴾ إليه لهذه الفائدة ، ومثله ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾" [1] .

أما قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ... ﴾ ففيه التعريف بالموصولية ، والتعريف باللام ، أما التعريف بالموصولية ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ ، وقوله جل شأنه : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، وقد أشرنا ــ آنفاً ــ إلى بعض إيحاءات التعريف التي نلاحظها من خلال التعريف بـ (الذين) وصلته في الأسلوب الأول ونظائره في هذه الآيات ، أما التعريف بالموصول وصلته في الأسلوب الثاني ، ففيه تذكير للمؤمنين ولفت لهم إلى أن أموالهم التي ينفقون منها ، أو التي ينبغي أن ينفقوا منها ، إنما هي رزق الله ساقه إليهم وجعلهم مستخلفين فيه من غير حول لهم ولا حيلة ، وفي هذا حث لهم على مداومة الإنفاق، وحث لغير المنفقين منهم على الإقبال على الإنفاق من مال الله الذي آتاهم .

أما التعريف باللام في : ﴿ الصَّلَاةَ ﴾ فاللام فيه للعهد ، والعهد هنا ذهني أو علمي ؛ لأن الصلاة مما لا يغيب عن أذهان المؤمنين .

وأما الآية التالية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ففيها التعريف بالموصول (الذين) وصلته ﴿ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ، وفيها التعريف باللام

---

(١) راجع : الكشاف ٤/١٣٩ .

في (البغي)،والتعريف بالإضمار في: ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

وقد وقفنا على الأسلوب الأول ــ آنفاً ــ أما التعريف باللام في ﴿الْبَغْيُ﴾ فاللام فيه كاللام في : ﴿ الصَّلَاةَ ﴾ للعهد الذهني ، وأما التعريف بالإضمار في : ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ فقد جعل الزمخشري ــ رحمه الله ــ تقديم الضمير على الخبر الفعلي فيه على معنى القصر ، وألحقه بالأسلوب السابق : ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ في هذه الدلالة ، حيث قال في النص السابق : ومثله (هم ينتصرون)(١).

وإن كنا نرى ــ كما يرى الطاهر رحمه الله ــ أن التقديم هنا لتقوية الخبر وتوكيده، وليس للقصر ؛ لأن غير المؤمنين ينتصر لنفسه إذا أصابه البغي ، فهم مشتركون مع غيرهم في هذه الصفة ، وليسوا مختصين بها (٢).

ونظرة أخرى في الجمل التي وقعت صلة ، والجمل التي عطفت عليها في الآيات السابقة ، تكشف لنا سراً من أسرار بلاغة القرآن الكريم في صياغة الأفعال صياغة موحية دالة تتناسب مع واقع المعنى الذي تشير إليه وحقيقته .

ففي الآية الأولى جاءت الصلة على صيغة المضي : ﴿ آمَنُوا ﴾، ثم عطف عليها صيغة المضارعة : ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وفي الآية الثانية جاءت الصلة على صيغة المضارعة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ ثم جاءت جملة جواب الشرط الذي عطف عليها على صيغة المضارعة أيضاً ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة جاءت الصلة على صيغة المضي : ﴿اسْتَجَابُوا﴾ ، ثم عطف عليها صيغة المضي : ﴿وَأَقَامُوا﴾ ، ثم عطف عليها صيغة المضارعة : ﴿يُنفِقُونَ﴾.

---

(١) راجع : النص ص ٧٧ من البحث .

(٢) راجع رأي الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٢٥ / ١٠٤ .

وفي الآية الرابعة جاءت الصلة شرطية ، وجاء فعل الشرط فيها ماضياً (أصابهم)، وفعل الجواب مضارعاً (ينتصرون) .

ولا شك في أن هذا التغاير بين الصيغ جاء ليوائم بين الصياغة وطبيعة الحدث الذي تدل عليه .

ففي الآية الأولى جاءت الصلة على صيغة الماضي ؛ لأن الإيمان سابق في الموجود لما جاء بعده ، فالإيمان تحقق أولاً ثم جاء بعده التوكل الذي يقتضي الرجوع إلى الله واللجوء إليه في كل أمر من الأمور ، وحياة الإنسان في تقلب ، وأموره في تجدد ؛ لذلك ناسب أن يصاغ التوكل على الله على صيغة المضارعة لما لها من دلالة على التجدد والحدوث ، يقول البقاعي رحمه الله : " ولعل التعبير بالمضارع للتخفيف في أمر التوكل بالرضى بتجديده كلما تجدد مهم "[1] .

وفي الآية الثانية جاءت الصلة : ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ على صيغة المضارعة، لتلائم واقع المؤمنين الصادقين في اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، وما يتعرضون له من وساوس شياطين الإنس والجن التي لا تنقطع ، فلما كان اجتنابهم هذا وبعدهم عنه متجدداً حادثاً ، ناسبه أن تصاغ الصلة الدالة عليه على صيغة المضارعة .

وجاءت الجملة المعطوفة عليها : ﴿يَغْفِرُونَ﴾ على صيغة المضارعة أيضاً، إشارة إلى أن غفرانهم عند الغضب متجدد مستمر لا ينقطع ولا يتوقف ، فالصيغة ملائمة لطبيعة وقوع الحدث الذي لا يتوقف حتى خروج الأرواح وانقطاع الأنفاس.

أما الآية الثالثة التي جاءت فيها جملة الصلة : ﴿اسْتَجَابُوا﴾ والجملة المعطوفة عليها: ﴿أَقَامُوا﴾ على صيغة المضي، فيبدو لي ــ والله أعلم ــ أن التعبير بالمضي هنا لأن الاستجابة قد وقعت بالإيمان الذي ذكر من قبل ، وهي عبارة عن اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ، وإقام الصلاة داخل في هذه

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/ ٦٣٧ .

الاستجابة كغيره من أركان الإسلام ، ولكنه خص بالذكر لأن الصلاة أعظم هذه الأركان ، فذكرها هنا بعد الاستجابة من قبيل ذكر الخاص بعد العام تنويهاً بفضله وشرفه .

وقيل: هذه الآية نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له وأقاموا الصلاة ، فهو من ذكر الخاص بعد العام لبيان شرفه لإيمانهم دون تردد وتلعثم[1].

وأما جملة :﴿يُنفِقُونَ﴾ فقد جاءت على صيغة المضارعة ملاءمة لدوام الإنفاق الواقع منهم وتجدده دون توقف ، فالصيغة ملائمة لطبيعة الحدث الذي يتجدد فيهم ما تجددت الأنفاس .

وأما الآية الرابعة والتي جاء فيها فعلُ الشرط : ﴿أَصَابَهُمُ ﴾ ماضياً، فالمضي هنا يتناسب مع حتمية وقوع البغي والعدوان على المؤمنين ، وهذا ما يؤيده الواقع ، وكأن الصياغة لا تشير بأن البغي سيصيبهم في المستقبل ، وإنما تشير بأنه قد أصابهم في الماضي .

وجاء الجواب مضارعاً : ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴾ ليدل على تجدد الانتصار كلما تجدد البغي عليهم ، يقول البقاعي رحمه الله : " أي يوقعون بالعلاج بما أعطاهم الله من سعة العقل وشدة البطش وقوة القلب النصر لأنفسهم في محله على ما ينبغي من زجر الباغي عن معاودتهم وعن الاجتراء على غيرهم مكررين لذلك كلما كرر بهم فيكون ذلك من إصلاح ذات البين "[2] .

وفي الآية التالية لهذه الآيات الأربع :﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴾ يأتي التنكير في ﴿ سَيِّئَةٍ ﴾ الأولى ليفيد العموم والإبهام مع الإفراد ، وفي

---

(١) راجع : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/٣٦٠ .

(٢) راجع نظم الدرر ٦/٦٤٠ .

﴿سَيِّئَةٌ﴾ الثانية ليفيد النوعية مع الإفراد؛لأن المعنى ــ والله أعلم ــ وجزاء سيئة ــ أي سيئة ــ سيئة مثلها في النوع والعدد ، فلا ينبغي لمن يريد الاقتصاص لنفسه أن يتجاوز في المقدار أو الكيفية ، وإلا كان ذلك ظلماً يأباه الشرع ، يقول الرازي رحمه الله :" هذه الآية أصل كبير في علم الفقه ، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها ، وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان ؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان ، فإذا لم يزجر عنه أقبل عليه ولم يتركه ، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزّه عنه ، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾(١) وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ...(٢)﴾" (٣) .

ولا يخفى أن التعبير عن المجازاة بلفظ ﴿سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السببية ، حيث إن المعنى الأصلي للفظ سبب في المعنى المراد ، وهو المجازاة ، وفيه زيادة التنفير من ارتكاب السيئات في حق الغير بإبراز العقوبة المترتبة عليها في صورة السيئة ، والأسلوب من قبيل المشاكلة ، ويصح ــ كما يرى الشهاب رحمه الله ــ حمل اللفظين في الآية الكريمة على حقيقتهما اللغوية ؛ لأن كلاً من السيئة وجزائها يسوء صاحبه (٤) .

ثم يأتي التعريف باللام في : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ليفيد استغراق جنس الظالمين وإخراجه من حب الله ، ثم إن هذا الجنس إما أن يكون خاصاً بالمعتدين من المؤمنين بعضهم على بعض في الجنايات كما يقرره سياق الآيات ، وإما أن

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٣٦ .

(٢) سورة غافر من الآية : ٤٠ .

(٣) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٩ .

(٤) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٦١/٨ .

يكون عاماً يشمل جنس الظالمين أياً كان ظلمهم ويدخل فيه المعتدون ، وحمله على أنه خاص بالمعتدين من المؤمنين أولى ؛ لأن هذه الجملة وقعت تذييلاً لما قبلها ، وما قبلها يحدد إطار الانتصار للنفس تحديداً دقيقاً يمنع صاحبه من تجاوزه ، ثم يلفت المظلوم إلىَ العفو والإصلاح ، تنبيهاً له على أن الانتصار ـ كما يقول الزمخشري رحمه الله ـ لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة والاعتداء خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية ، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر[1] .

و (مَن) في قوله تعالى : ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ... ﴾ مثل (مَن) في قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ ، يجوز أن تكونا شرطيتين وهو الأرجح لمجئ الجملة بعدهما مقترنة بالفاء التي تدل على سببية ما قبلها فيما بعدها مع ربط الشرط بالجزاء ، ويجوز أن تكونا موصولتين ضمنتا معنى الشرط، وقد أفاد التعريف بهما في الموضعين العموم ، والمعنى في الأولى : فالذي عفا وأصلح فأجره على الله ، وفي الثانية : وللذي انتصر بعد ظلمه ... على أن اللام لام الابتداء جئ بها للتأكيد ، وإذا كانت (من) شرطية ، فاللام موطئة للقسم[2] .

وسلك النظم الكريم طريق التعريف بالإشارة في : ﴿أُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لتمييز المشار إليه أتم تمييز ، تنبيهاً على أنهم جديرون بما ذكر بعد الإشارة ، وهو عدم مؤاخذتهم ؛ لأنهم انتصروا بعد أن ظلموا ولم يبدأوا الناس بالظلم ، ومن كان كذلك فلا سبيل عليه .

ولا يخفى أن مجئ (سبيل) منكراً ، مسبوقاً بـ (من) في سياق النفي ، قد أدى دوراً مهماً في استقصاء جنس السبيل مع توكيد النفي، فالأسلوب ينفي عنهم أدنى شئ من الإثم أو الحرج بطريق مؤكد .

---

(١) راجع : الكشاف ٤/١٤٠ .

(٢) راجع : البحر المحيط ٧/٥٢٣ ، والتحرير والتنوير ٢٥ / ١١٨ .

وتعريف (السبيل) باللام في قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ... ﴾ للعهد ، والعهد هنا ذكري ، لسبق ذكر السبيل منكراً في الآية السابقة ، فهو على حد قوله تعالى : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا [*] فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾[1]. والمقصود به سبيل الإثم والحرج ، أما تعريف ﴿النَّاسَ﴾ بها فهو للعهد الذهني ؛ لأن الذهن ينصرف عند سماع لفظ الناس معرفاً باللام إلى من وقع عليهم ظلم هؤلاء،وليس إلى كل الناس ، وكذلك التعريف بها في : ﴿الْحَقِّ﴾ يعني بغير الحق المعهود المعروف بطريق الشرع .

أما التعريف بالموصولية في الآية فللتوصل إلى وصفهم بما ذكر في الصلة وما عطف عليها ، والملاحظ هنا مجئ الجملتين على صيغة المضارعة : ﴿يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وذلك للإشارة إلى أن السبيل والمؤاخذة تكون على الذين يتكرر منهم الظلم والبغي في الأرض بغير الحق ، بحيث صار ظلمهم وبغيهم دأبهم الذي لازمهم حتى الممات ، أما الذين ظلموا وبغوا ثم تابوا فسيدخلهم الله في رحمته .

وبعد التعريف بالموصولية للظالمين والبغاة، يأتي تعريفهم بالإشارة : ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للتنبيه ــ كما يرى الطاهر رحمه الله ــ على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله مع تمييزهم أكمل تمييز بهذا الوعيد[2] . فهم أحرياء بأن يختصوا بالعذاب الأليم لأجل أنهم ظلموا الناس وأفسدوا في الأرض ، وفي الإشارة إليهم بما يشار به للجمع البعيد إبعاد لهم وذم لصنيعهم .

ويأتي التنكير في (عذاب) تهويلاً وتفظيعاً لشأن العذاب الأليم الشديد الذي

---

(١) سورة المزمل من الآيات : ١٥ ، ١٦ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير : ٢٥ / ١٢١ .

ينتظرهم جزاءً وفاقاً لإذاقتهم الناسَ ألوانَ العذاب في الدنيا .

و (مَن) في الآية التالية : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ كـ (مَن) في الآيتين السابقتين : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ و ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ يجوز أن تكون شرطية ، ويجوز أن تكون موصولة[1] ، ورجح أبو حيان ـ رحمه الله ـ كونها موصولة [2]، والتعريف بها أفاد العموم، والتركيز هنا على جملة الصلة وما عطف عليها : ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ ، ولذلك كانت الإشارة إليهما بما يشار به للبعيد مع صياغة الجملة صياغة مؤكدة : ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ تعظيماً لشأنهما ، وإعلاء لمكانتهما ، وإبرازاً لهما في صورة الشئ المحسوس الذي يشار إليه ، دعوة إلى الامتثال ، وحثاً على الصفح والعفو .

ومضمون الآية بمثابة التكرار لمضمون آية العفو قبلها ، وإنما كرر ـ كما ذكر الشهاب رحمه الله ـ اهتماماً بالعفو وترغيباً فيه ، والصبر هو الإصلاح المتقدم فقدم هنا ، وعبر عنه بالصبر لأنه من شأن أولى العزم وإشارة إلى أن العفو المحمود ما نشأ عن التحمل لا عن العجز[3] .

والملاحظ في سياق هذه الآيات أن منها ما يصف المؤمنين بالانتصار ممن بغى عليهم من أنفسهم ، ومنها ما يدعوهم إلى العفو والمغفرة ، وظاهر هذا يؤدى إلى التناقض ، ويثير في النفوس سؤالاً عن المنهج الذى يجب أن تلتزمه ، وقد أجاب العلامة الرازي ـ رحمه الله ـ عن هذا السؤال جواباً شافياً أزال هذا التناقض وبيَّنَ للمؤمنين متى ينتصرون ومتى يعفون فقال : " إن العفو على قسمين : أحدهما : أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه

---

(١) راجع : التبيان في إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى ص٥٢١ ، نشر : مكتبة أسامة الإسلامية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

(٢) راجع : البحر المحيط ٥٢٣/٧ .

(٣) راجع : حاشية الشهاب ٣٦٢/٨ .

عن جنايته . والثاني : أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول ، وهذه الآية ــ يعني آية : ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ــ محمولة على القسم الثاني ، وحينئذ يزول التناقض والله أعلم[1] .

ونحن مع الرازي ــ رحمه الله ــ في ذلك ، لكننا نضيف أنه لا يبعد عندنا ــ والله أعلم ــ أن تكون الدعوة إلى الانتصار بالمماثلة ، والحث على العفو ، جاءا على عادة القرآن الكريم في مراعاة طبائع البشر واختلاف سجاياهم ، فمن يستطع كظم الغيظ ويعفو فهو أقرب للتقوى ، ومن لم يستطع ويضعف فلينتصر دون أن يتجاوز الحد .

ويرى الشهاب ــ رحمه الله ــ أن العفو يكون عن الضعيف المقر بجرمه ، والانتصار يكون من القوي المصر على فعله ، يقول : " وحاصله أنهما في محلين مختلفين فلا تعارض بينهما ، فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ، ولفظ المغفرة مشعر به ، والانتصار من المخاصم المصر محمود ، ولفظ الانتصار مشعر به[2] .

وهذا كلام جيد حسن ؛ لأنه يربط بين اللفظة القرآنية والسياق الذي وردت فيه، فالمناسبة واضحة وقوية بين لفظ المغفرة وضعف الجاني في سياق الحديث عن العفو ، وواضحة وقوية أيضاً بين لفظ الانتصار وظلم الجاني في سياق الحديث عن الانتصار والمعاقبة .

---

(١) راجع التفسير الكبير ٢٧ / ١٧٨ .

(٢) راجع : حاشية الشهاب ٣٦١/٨ .

تصوير هول الموقف على الظالمين في اليوم الآخر
ودعوة الناس إلى الامتثال لأمر الله

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما بين تعالى للمؤمنين في الآيات السابقة المنهج القويم الذي يجب عليهم أن ينتهجوه في حياتهم الدنيا ، خصوصاً إذا وقعت بينهم المظالم ، بيَّن هنا أن من يخرج عن هذا المنهج فهو ضال أضله الله عن سبيل الهداية والعدل .

ثم بين هول الموقف على الظالمين حينما يرون العذاب ويعرضون على نار جهنم وهم خاشعون ذلاً وصغاراً ينظرون إليها بطرف ذليل منكسر ، والمؤمنون يقولون وهم مطمئنون : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم فحرموهم من الجنة واستقروا في العذاب المقيم ، وخسروا أهليهم بمفارقتهم لهم في دركات جهنم إن

كانوا مثلهم في الخسران ، أو بدخولهم الجنة إن كانوا من المهتدين "ويجوز أن يكون قولهم هذا في الدنيا لما غلب على قلوبهم من الهيبة عندما تحققوا هذه المواعظ[1] .

ثم أمر سبحانه الناس بالاستجابة والامتثال لما أمرهم به ونهاهم عنه قبل أن يأتيهم يوم لا راد له منه سبحانه .

ثم أخبر نبيه ﷺ بأنه لم يرسل إلى الناس رقيباً عليهم يحفظ أعمالهم ويحصيها ، وإنما أرسل ليبلغ ما أمر به ، فلا يحزنه من أعرض وأبى ، ثم بيَّن سبحانه حال الإنسان تجاه النعمة والبلية ، وأنه يفرح إذا حلَّ به الرخاء والسعة ، ويقنط إذا نزل به البلاء والقحط .

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/٦٤٥ .

أسرار التعريف والتنكير

تعددت أساليب التعريف والتنكير في هذه الآيات وتنوعت تنوعاً دعا إليه المقام والمعنى الذي تشير إليه .

وأول هذه الأساليب التعريف بـ (مَن) في الآية الأولى : ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ... ﴾ و (مَن) هنا مثل (مَن) في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ وفي قوله سبحانه :﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾، وفي قوله عز اسمه : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ تحتمل الشرطية والموصولية ، والمعنى مع الموصولية : والذي يضلله الله فما له من ولي من بعده ، والتعريف بالموصولية هنا للإشارة إلى وجه بناء الخبر ، فجملة الصلة : ﴿ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ تنبئ بأن الخبر الذي سيأتي بعدها سيكون ذماً وتهديداً ، وقد جاء الخبر كذلك : ﴿ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ﴾ بالتنكير في (ولى) وسبقه بـ (من) في سياق النفي ، لتسليط النفي على عموم الجنس بطريق الاستقصاء والتوكيد أي : فليس له ولى ـ أي ولى ـ يتولاه بعد أن خذله الله وأضله عن طريق الحق ، يقول الرازي رحمه الله : " وهذا صريح في جواز الإضلال من الله ـ تعالى ـ وفي أن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى "[1] .

ومجيء الصلة في هذا السياق على صيغة المضارعة أصل ـ كما يرى أستاذنا د/ المطعني ليعم الحكم كلَّ الأوقات ، ولدفع توهم أن هذه السنة الإلهية خاصة بالماضي[2] .

---

(١) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٨٣ .

(٢) راجع : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٤٦/٤ .

ثم يأتي تعريف المفعول : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ باللام لاستغراق جنسهم ، والجنس هنا إما عام يشمل جميع الظالمين ، وإما خاص يشمل جنس الظالمين المذكورين في الآيات السابقة ، وهم الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، وحمله على العموم أرجح ؛ لدخول الخاص فيه .

أما اللام في ﴿ الْعَذَابَ ﴾ فهي عهدية ، والعهد هنا ذكري ، لأن اللفظ ذكر قبل ذلك منكراً، وذلك في قوله تعالى في جزاء الظالمين : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وأما التنكير في : (مرد) و(سبيل) فقد أفاد العموم والإبهام ، فهم يتمنون حينما يرون العذاب أن يردوا أي مرد من أي سبيل كي يؤمنوا ويعملوا صالحاً كما حكى القرآن عنهم .

ونلحظ مع الدلالة على العموم فيهما الدلالة على التعظيم في(مرد)؛ لأنهم يرونه في هذا اليوم عظيماً بعيد المنال ، والدلالة على التحقير في (سبيل) حيث إنهم يتمنون الرد من أي سبيل ولو كان ضئيلاً .

والخطاب في الآية التالية : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ كالخطاب في : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ... ﴾عام يشمل كل مخاطب ، وفي ذلك إشارة إلى أن حالهم تناهت في الظهور بحيث لا يختص بها راءٍ دون راءٍ ، والضمير في (عليها) عائد على النار بطريق الإضمار من غير ذكر ، وهو طريق فيه من التهويل والتفخيم ما فيه ، وكأنها حاضرة عالقة بالأذهان لا تغيب .

وبعد هذا الخطاب والإضمار يأتي التنكير في (طرفٍ) ليفيد التحقير ، ويأتي الوصف (خفي) ومعناه : ذليل ؛ ليصل بدلالة التنكير إلى أقصى غايات التحقير والازدراء ، والمعنى : أنهم يسارقون النظر ، أو أن نظرهم من عينٍ ضعيفة ، أو أنهم يبتدئون نظرهم من تحريكٍ لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة ، أو أنهم ينظرون إلى النار نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ، ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المحاب ، وقيل : يحشرون عمياً فلا ينظرون إلاَّ

بقلوبهم... والصواب أنهم ينظرون إلى النار من طرف ذليل، وصفه الله جلَّ ثناؤه بالخفاء للذلة التي قد ركبتهم حتى كادت أعينهم أن تغور فتذهب[1] .

ويأتي التعريف بالموصولية في : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ للتركيز على جملة الصلة التي جاءت على صيغة المضي لتشير إلى أن المقصود بالذين آمنوا هم الذين وصفوا بالأوصاف السابقة ، والملاحظ هنا عدم اقتران الإيمان بالعمل الصالح ، وذلك لأن الآية لا تريد وصف المؤمنين بأعمالهم ولا وضعهم في مقابل الظالمين ، إذ لما أريد ذلك قرن الإيمان بالأعمال الصالحة تأمل قوله تعالى في سياق سابق من السورة : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

وفي هذا الجزء من الآية يأتي تعريف ﴿ الْخَاسِرِينَ ﴾ باللام ، للمبالغة في كمال الجنس ، أي : المتصفون بالخسران الكامل هم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أو كما يقول الشهاب ــ رحمه الله ــ الكامل خسرانهم[2] ، وجيء بالموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ في وصف هؤلاء الخاسرين ؛ لأن مضمون الصلة ــ وهو خسرانهم لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ــ معلوم للمؤمنين بالنقل وبحالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وتعريف الطرفين: ﴿ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ .. ﴾ قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً ، ونكر ﴿ عَذَابٍ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ للتهويل والتفظيع .

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٥ / ٢٦ ، مجاز القرآن لأبى عبيدة ٢/٢٠١ تعليق د / محمد فؤاد سزكين ، نشر : مكتبة الخانجى بمصر ــ بدون تاريخ . تلخيص البيان في مجاز القرآن ص٢٧٦ .

(٢) راجع : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ٣٦٣ .

وجئ بـ (أولياء) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ نكرة مسبوقة لاستقصاء الجنس ، وسبقت بـ (من) في سياق النفي لتوكيد النفي، أي : لم يكن لهم أي ولى .

والملاحظ هنا أن النكرة جاءت على صيغة الجمع ، والبلاغيون يقولون بأن استغراق المفرد في سياق النفي أشمل من استغراق الجمع ، يقول السكاكي رحمه الله : " واستغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع ، ويتبين ذلك بأن ليس يصدق : لا رجل في الدار في نفي الجنس، إذا كان فيها رجل أو رجلان، ويصدق: لا رجال في الدار "[1].

وقد سوّى د/ محمد الأمين الخضري بين المفرد والجمع في إفادة الشمول حيث قال : " وما ذهب إليه المفسرون في تعليل الإفراد بدلالته على العموم في سياق النفي ... ليس كشفاً عن سر الإفراد ، فكثيراً ما يوقع النظم الكريم الجمع في سياق النفي ، ويؤدى الجمع ما يؤديه المفرد من إفادة الشمول ، والعمدة في ذلك هو السياق وحده ، فهل ترى في إفادة الشمول فرقاً بين قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [2] ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ [3] ﴾؟ [4] .

ونحن مع د / الخضري في أن النكرة متى جاءت في سياق النفي أفادت العموم والشمول ، سواء أكانت بلفظ المفرد أم كانت بلفظ الجمع ، وإن كان الإفراد ينفى المفرد والمثنى والجمع ، والجمع لا ينفى إلا الجمع، إلا أن المقصود في مثل هذه الأساليب هو نفى جنس الأولياء من دون الله سواء أكان ذلك بطريق الإفراد،أم كان بطريق الجمع والله أعلم .

---

(١) راجع : مفتاح العلوم ص١٢٢ .

(٢) راجع : سورة الحج آية : ٧١ .

(٣) راجع : سورة البقرة آية ٢٧٠ .

(٤) راجع : الإعجاز البلاغي في صيغ الألفاظ ص٦٣ .

ومثل ما نحن بصدده من دلالة التنكير في سياق النفي على شمول الجنس ، تنكير ﴿ سَبِيلٍ ﴾ في الآية نفسها ، أي : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ فليس له أي سبيل إلى الهداية ، وجاءت (من) قبل النكرة لتؤكد النفي وتقويه .

و (مَن) في هذا الجزء من الآية موصولة أشربت معنى الشرط ، ولذلك جاءت الجملة بعدها مقترنة بالفاء ؛ وجئ بالصلة ﴿ يُضْلِلِ ﴾ على صيغة المضارعة للدلالة على أن هذا الحكم عام يشمل كل زمان .

والخطاب في قوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم ... ﴾ للكافرين ، والتنكير في ﴿ يَوْمٌ ﴾ للتفخيم والتهويل والتعظيم ، والمراد به قيل : يوم ورود الموت ، وقيل : يوم القيامة ، ومعنى ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ لا شئ يرد مجيئه إذا جاء الله به ، أو لا يرده الله بعد ما حكم به ، أو لا يقبل التقديم والتأخير ، أو لا مرد فيه إلى حال التكليف[1] .

والتنكير في ﴿ مَرَدَّ ﴾ على المعنى الأول يفيد العموم ، وعلى المعنى الثانى يفيد التقليل ، أي : ليس لكم أدنى طمع في أن يرده الله بعد ما حكم به ، وعلى باقي المعاني يفيد التعظيم والتفخيم .

و ﴿ مَّلْجَأٍ ﴾ يجوز أن يكون اسم مكان من " لجأ " فيكون المعنى : ما لكم من مكانٍ آمنٍ ينفعكم في التخلص من العذاب تلجأون إليه ، ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً من الفعل نفسه ، فيكون المعنى : ما لكم من ملجأ تلجأونه .

و ﴿ نَكِيرٍ ﴾ معناه : الإنكار ، أي : لا تقدرون على أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوِّنَ في صحائف أعمالكم ، أو هو فعيل بمعنى فاعل ، أي : مانكم

---

(١) راجع : جامع البيان ٢٥ / ٢٧ ، والكشاف ١٤٢/٤ ، والتفسير الكبير ٢٧ / ١٨٤ ، والبحر المحيط ٥٢٥/٧ ، وتفسير أبى السعود ٣٦/٨ .

ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر[1] .

والتنكير فيهما لعموم الجنس ، والمعنى : ليس لكم شئ أي شئ إذا جاءكم هذا اليوم من جنس الملجأ والنكير ، وقد يفيد التقليل ، فيكون المعنى : ليس لكم حينئذ أيسر شئ يوصف بالملجأ أو النكير .

والخطاب في: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ للرسول ﷺ، وفيه تسلية له عن إعراضهم ، والتعريف باللام في ﴿ الْبَلَاغُ ﴾ للعهد ، وفي﴿ الْإِنسَانَ ﴾ لاستغراق الجنس ؛ ولذلك قال بعده: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ فأتى بضمير الجمع ، وعموم الجنس فيه خاص ــ كما يرى الزمخشري رحمه الله بالمجرمين؛ لأن إصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم[2] ، وقيل : اللام في ﴿ الْإِنسَانَ ﴾ الأول للعهد ، وفي الثاني للجنس[3] ، والصواب ــ كما ذكر الزمخشري رحمه الله ــ أنها للجنس . وأخبر عن الإنسان بأنه (كفور) للمبالغة في وصفه بجحد نعمة ربه ، وأعيد ذكره باسمه الظاهر دون ضميره ، للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم[4] .

والمراد بالرحمة : النعمة من الصحة والغنى والأمن ، وبالسيئة : البلاء من المرض والفقر والمخاوف[5] .

والتنكير فيهما للتحقير ، والمعنى ــ والله أعلم ــ إذا أصابه أيسر شئ من الرحمة فرح به ، وإن أصابه أدنى شئ من السيئة كفر وجحد ، ويمكن حمل التنكير فيهما على التقليل ، فيكون المعنى : إذا أصابه أقل شئ منهما قابل ذلك

---

(١) راجع : الكشاف ١٤٢/٤ ، والتفسير الكبير ٢٧ / ١٨٤ .

(٢) راجع : الكشاف ١٤٢/٤ .

(٣) راجع : حاشية الشهاب : ٣٦٤/٨ .

(٤) راجع : الكشاف ١٤٢/٤ .

(٥) راجع : المرجع السابق الصفحة نفسها .

بالفرح أو الغضب ، ويمكن حمله على العموم ، فيكون المعنى : إذا أصابه أي شئ من ذلك ..

ومن بلاغة النظم في هذه الآية أنه استخدم أداة الشرط (إذا) في جانب الرحمة ، واستخدم أداة الشرط (إن) في جانب السيئة ؛ ليلائم بذلك بين الأداة وكثرة وقوع الشرط وقلته ، إذ لما كانت إذاقة الرحمة أكثر في وقوعها من إصابة السيئة عبر معها بـ (إذا) ، ولما كانت الإصابة بالسيئة أقل من الإذاقة بالرحمة عبر معها بـ (إن) ، فالتعبير بالأداتين هنا للإشعار بكثرة رحمات الله ونعمه على الإنسان وقلة ابتلائه له[1] .

(١) راجع في الفرق بين الأداتين والمقامات التى تستخدم فيهما : الإيضاح للخطيب القزوينى ٢/١١٧.. تحقيق : د/ محمد عبد المنعم خفاجى . ط: دار الجيل ـ بيروت ـ ط : ثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

تقدير الخلق والرزق في الأولاد
بمحكم علمه ـ تعالى ـ وقدرته

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ .

في هاتين الآيتين الكريمتين يخبر سبحانه بانفراده بملك السماوات والأرض وما فيهن ، وبأنه القادر على إيجاد ما يشاء ، وأنه المعطي والمانع ، يهب لمن يشاء من خلقه ذرية إناثاً ، ويهب لمن يشاء منهم ذرية ذكوراً ، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم بكل شئ ، قادر على كل شئ .

أسرار التعريف والتنكير

اشتملت الآية الأولى من هاتين الآيتين على كثير من أساليب التعريف التي لها دلالاتها الخاصة في النظم الشريف ، كما اشتملت على أسلوب التنكير في (إناثاً) ، وهو أسلوب مغاير في الصياغة لأسلوب التعريف في (الذكور) .

فقد بدأت هذه الآية بأسلوب التعريف بالإضافة في : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ حيث أضاف النظم الكريم ملك الله ــ عزَّ وجلَّ ــ إلى السماوات والأرض، إضافة توحي بالإحاطة والشمول ، وهذه الطريقة كثيرة جداً في القرآن الكريم ،

ونظيرها من غير الإضافة قوله سبحانه في هذه السورة : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ، وهذه الأساليب تقصر بطريق التقديم ملك السماوات والأرض على ذي الجلال والإكرام، والملاحظ فيها أن النظم الكريم لم يأت فيها بكلمة ﴿شئ﴾ ، إذ لم يقل لله كل شئ ، وذلك لأنه ما من شئ إلا وهو داخل في أقطار السماوات والأرض ، فالتعبير القرآني أبلغ نظماً وأكثر إحاطة .

ثم يأتي التعريف بالموصولية في : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بصيغة المضارعة في جملة الصلة : ﴿ يَشَاءُ ﴾ للإشارة إلى استمرار المشيئة في الخلق والهبة وشمولها كل الأوقات ، وهى مناسبة لصيغة المضارعة في : (يخلق ـ يهب) وتأمل المغايرة الأسلوبية بـ (ما) و (من) ومدى ملائمة كل منهما للسياق الذى وردت فيه ، إذ جاءت الأولى في سياق الخلق والإيجاد ، وهو واقع على ما يعقل وما لا يعقل ، ومخلوقات الله غير العاقلة أكثر من مخلوقات الله العاقلة ـ وهو أعلم بما يخلق ـ ولذلك غلَّب الأسلوب غير العاقل على العاقل باستخدام الأداة . بينما جاءت الثانية في سياق هبة الإناث والذكور لبنى آدم ـ وهم عقلاء ـ ولذلك كان استخدام (مَن) .

ثم يأتي مفعول ﴿ يَهَبُ ﴾ منكراً في المرة الأولى ، معرفاً في المرة الثانية : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ مع تقديم الإناث على الذكور، تقديماً أثار مع هذه المغايرة في الأسلوب بين التعريف والتنكير أذهان العلماء في القديم والحديث .

فالزمخشري ـ رحمه الله ـ يرى أن تقديم الإناث على الذكور للملاءمة مع ختام الآية السابقة وصدر هذه الآية ، إذ لما كان ختام الآية السابقة الحديث عن البلاء، ناسبه أن تذكر الإناث أولاً لأن العرب كانت تعدّهن بلاء، ولما كان صدر الآية يشير إلى أنه سبحانه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، كان ذكر الإناث

اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم .

ويرى أن تعريف الذكور جاء تداركاً لتأخيرهم، إذ فيه التنويه والتشهير، وأن اللام فيه للعهد، فكأنه قيل: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ولا يغيبون عن قلوبكم وعقولكم[1] .

ويتبعه الرازي ــ رحمه الله ــ في ذلك ، غير أنه زاد أن التقديم للانتقال من الغم إلى الفرح ، وهذا أتم للنعمة والإكرام ، وأن فيه تطييباً لقلوب آبائهن ، وتأنيساً وتشريفاً لهن ، وجبراً لضعفهن ، ليهتم بأمورهن وشئونهن ، أما التعريف فللتنبيه على أن الذكر أفضل من الأنثى[2] .

وتبع الزمخشري والرازي لفيف من المفسرين كأبي حيان، والقرطبي ، والبيضاوي ، والذي أضاف أن تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل، أو للمحافظة على الفواصل ، وبعد البيضاوي يأتي الشيخ زادة ، والشهاب ، والبقاعي ، والألوسي ، والذي شرح العهد في الذكور ، وفسره بالتنبيه على أنهم المعروف الحاضر في القلوب أول كل خاطر وأنهم الذين عقدوا عليهم مناهم[3].

أما أبو السعود فيلتقي مع البيضاوي ــ رحمهما الله ــ في أن تقديم الإناث وتأخير الذكور معرفاً للحفاظ على فواصل الآيات بعد أن ذكر للتقديم الأسباب التي ذكرها سابقوه[4] .

وهذه إضافة جيدة تحسب للبيضاوي وأبي السعود ــ رحمهما الله ــ وإن كانت تتعلق بالناحية اللفظية ، إلا أنها مما يجب ألا يغفل ، إذ لا يخفى ما يحدثه

---

(١) راجع : الكشاف ١٤٢/٤ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٨٦ .

(٣) راجع : البحر المحيط ٥٢٥/٧ ــ ٥٢٦ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٦ / ٤٨ ط : دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ بدون تاريخ ، والبيضاوى بحاشية الشيخ زادة ٤٤١/٧ ، وبحاشية الشهاب ٣٦٥/٨ ، نظم الدرر ٦٤٩/٦ ، روح المعانى ٢٥ / ٥٤ .

(٤) راجع : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٣٦٦/٨ وتفسير أبى السعود ٣٧/٨ .

توافق الفواصل على وزن وروي واحد ــ إن صح التعبير ــ من تنغيم وانسجام موسيقي يستصغي الآذان ، ويستهوي القلوب .

وأما الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ فيرى أن تنكير الإناث جاء موافقاً للأصل في أسماء الأجناس ، وأن تعريف الذكور للعهد ، أي يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به وترْغبون فيه[1] .

وواضح من خلال هذه الآراء أن معظمها يلتقي في أن تعريف الذكور بلام العهد للتنبيه على أنهم المعروفون الحاضرون في القلوب والخواطر والذين لا يغيبون عن البال لحظة ، وهذا ما أميل إليه ؛ لأنه يتلاءم مع طبيعة النفس البشرية وهواها وحبها للذكور في كل زمان ومكان .

وأما تقديم الإناث على الذكور فيبدو لي ــ والله أعلم ــ أن فيه ــ إضافة إلى ما ذكره المفسرون رحمهم الله ــ إشارة إلى أنهن أهم وأكثر نفعاً لآبائهن من الذكور، حيث قال رسول الله ﷺ في أجر من رزق منهن بشئ فأحسن تربيتهن وتأديبهن : « مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ » [2]، وقال عليه الصلاة والسلام: « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ ». وَضَمَّ أَصَابِعَهُ [3].

ففي تقديمهن في النظم الكريم لفتٌ وتنويهٌ لنفعهن لآبائهن يوم القيامة ؛ ولذلك ذكرن أولاً في سياق الحديث عن الهبة الإلهية لبني آدم ورزقهم بالذرية .

وأما تنكيرهن ففيه ــ والله أعلم ــ إشارة إلى أنهن المنسيات البعيدات عن الخاطر ، الغائبات عن الذكر ، وربما كان فيه ــ كما يرى الشهاب رحمه الله ــ

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢٥ / ١٣٨ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب رحمه الولد وتقبيله ومعانقته ، رقم : ٥٩٩٥ ، ومسلم كتاب البر والصلة والأدب باب فضل الإحسان إلى البنات رقم :٢٦٢٩ واللفظ له .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب فضل الإحسان إلى البنات رقم :٢٦٣١ .

إيهام التحقير[1].

هذا عن الآية الأولى ، أما الآية الثانية فقد اشتملت على التعريف بالإضمار في : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ بضمير الغيبة تلاؤماً مع مقام الحديث عن غائبين ، والضمير فيه يعود على الإناث والذكور ، والمعنى ـ كما ذكره الرازي ـ رحمه الله ـ يقرن الإناث والذكور فيجعلهم أزواجاً[2] .

كما اشتملت على التنكير في : (ذكراناً وإناثاً) ، وقد أفاد في هذا السياق الكثرة ، أي : أو يزوجهم ذكوراً وإناثا أكثر من زوجين ، وإلا لقال النظم : أو يزوجهم ذكراً وأنثى ، بالإفراد ، والتعبير بلفظ (الذكران) بدلاً من الذكور للمبالغة ـ كما يرى البقاعي رحمه الله ـ في الدلالة على الكثرة ، ترغيباً في سؤاله والخضوع لديه رجاء نواله[3] .

والملاحظ هنا تقديم الذكور على الإناث ، وذلك للتنبيه على أن تقديم الإناث في الآية السابقة لم يكن لتقدمهن ، وإنما كان لنكتٍ جليلة يجب تطلبها[4] .

ويأتي بعد ذلك التعريف بالموصولية في : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً ﴾، والتعريف هنا كالتعريف في : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾، والتركيز هنا على جملة الصلة وما تتضمنه من دلالة على أن العقم أو الحرمان من الولد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، وهذا حكم عام يشمل بنى آدم منذ خلق آدم إلى أن يؤذن للأرض أن تميد.

ونكر ﴿ عَقِيماً ﴾ للدلالة على الكثرة ، وهذا يتناسب مع دلالة (مَن) على

---

(1) راجع : حاشية الشهاب على البيضاوي ٣٦٦/٨ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٨٦ .

(٣) راجع : نظم الدرر ٦٤٩/٦ .

(٤) راجع : الكشاف ١٤٢/٤ ، نظم الدرر ٦٤٩/٦ .

العموم الداخل في حيز الصلة ﴿ يَشَاءُ ﴾ ، ونلحظ في هذا التنكير تخفيفاً ولطفاً ربانياً بمن حرموا نعمة الولد ، إذ لو جاءت هذه الكلمة معرفة فقال النظم : ويجعل من يشاء العقيم ، لأفاد الأسلوب القصر ، وحينئذ يشعر كل واحد منهم أنه هو هذا العقيم المقصود بهذا الأسلوب ولا يوجد عقيم سواه ، وهذا يثير في النفس من الأحزان ما لا يثيره أسلوب التنكير الذي يشعره بأنه ليس وحده من حرم هذه النعمة وإنما معه كثيرون .

وتأمل بلاغة النظم الكريم في هاتين الآيتين ، وكيف بدأ بإثبات الملك الأعظم للواحد الأعظم ، ثم أعقبه بالمشيئة المطلقة في الخلق والتدبير ، لينتقل بعد ذلك إلى المشيئة المطلقة في تقسيم الأرزاق التي تتعلق بأحد طرفي زينة الحياة الدنيا وأقربهما إلى قلب الإنسان ، وهو الولد ، أو البنون كما أخبرت آية الكهف: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] تمهيداً لهذه القسمة التي لا تسوى بين الخلق ، وإن كانت عادلة لأنها صادرة عن العلم المطلق بما يصلح حياة الإنسان ويفسدها ، وتبدأ هذه القسمة بذكر ما هو أدنى ــ حسب عادات الناس وأحاسيسهم على اختلاف مشاربهم ــ يليه ذكر ما هو أعلى وأحب ، ثم تختتم بذكر ما هو أدنى من سابقيه ، إشارة إلى أن هذه القسمة من عند المالك الأعظم الذي يتصرف في ملكه كيفما يشاء ، لفتاً للنفوس المؤمنة إلى الإذعان والرضا بقضائه ، وتنبيهاً لها بأنه لم ولن يكون إلا ما شاء سبحانه .

ويختتم النظم بالتذييل الرائع الذي يؤكد جريان هذه القسمة على العلم المطلق والقدرة المطلقة (إنه عليمٌ قدير).

يقول الشيخ / سيد قطب رحمه الله : " والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام ،

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٤٦ .

وكذلك ذكر : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ ، فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع ، ورد الإنسان المحب للخير إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرُّ وما يسوء ، ومن عطاء أو حرمان[1] .

---

(١) راجع : في ظلال القرآن ٢٥ / ٣١٦٩ .

الختام والحديث عن الوحي
كما بدأت به السورة الكريمة

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

هذه الآيات هي خاتمة السورة الكريمة ، وفيها تتحدث عن الوحي وكيفيته، نافية عن أي بشر أن يكلمه الله إلا عن طريق الوحي ، وهو الإلهام أو من وراء حجاب كما كلم موسى - عليه السلام - أو يرسل رسولاً من الملائكة فيوحى إلى هذا البشر ما شاء الله ، وهذا وما قبله لا يكون إلا للأنبياء عليهم السلام .

وتشير الآيات إلى أن النبي ﷺ واحد من هؤلاء الرسل الذين أوحى الله إليهم ، ما كان يدري قبل الوحي إليه شيئاً عن القرآن ولا الإيمان ، وأن الله تعالى أوحى إليه هذا الوحي ليهتدي به من آمن إلى الصراط المستقيم.

يقول البقاعي ــ رحمه الله ــ في ملاءمة هذه الآيات لما قبلها من السورة الكريمة : " والمراد بهذا رد ما تقدم من نسبتهم له ﷺ إلى الافتراء ، لأنه - تعالى - لم يختم على قلبه ، بل فتحه بيد القدرة. وأحياه بروح الوحي، فأنطقه بالحكم

التي خضعت لها الحكماء ، وأقرت بالعجز عن إدانتها ألباب العلماء[1] .

أسرار التعريف والتنكير

بدأت أساليب التعريف والتنكير في هذه الآيات بأسلوب التنكير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ، حيث نكر (بشر) لإفادة العموم، إذ المعنى : ما كان لأي أحد من البشر أياً كان أن يكلمه الله إلا ﴿وَحْياً﴾ وهو الإلهام والقذف في القلب،أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم ــ عليه السلام ــ في ذبح ولده ، وقيل : أوحى الله الزابور إلى داود ــ عليه السلام ــ في صدره[2] .

ونكر (وحياً) لأنه في موضع الحال[3] ، ولا يخلو التنكير فيه من إفادة التعظيم ، ومثله في هذه الدلالة تنكير ﴿حِجَابٍ﴾ في قوله : ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى : حجاب عظيم يمنع رؤية السامع للمتكلم ، وهذه الجملة الكريمة تمثيل ــ بياني بطريق الاستعارة ــ لكلام الله العبد من غير أن يراه ، بحال الملك المحتجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه[4] .

أما تنكير ﴿رَسُولاً﴾ فيحتمل أن يكون للإفراد ، أي: رسولاً واحداً ، إذ لم يرد أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبيائه بأكثر من ملك ، وقد علم بطريق النقل أن المخصوص بالوحي إلى الأنبياء من الملائكة هو جبريل عليه السلام ، ويحتمل أن يكون التنكير للتعظيم ، أو التعظيم مع الإفراد .

ثم يأتي التعريف في : ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بالموصولية للإشارة إلى عموم المشيئة

---

(١) راجع : نظم الدرر ٦/٦٥٢ .

(٢) راجع : الكشاف ٤/١٤٣ ، وتفسير أبي السعود ٨/٣٧ .

(٣) راجع : الكشاف ٤/١٤٣ .

(٤) راجع : : الكشاف ٤/١٤٣.

المطلقة ، ونشير هنا إلى أن (ما) في هذا الأسلوب مثل (ما) في الأسلوب السابق : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يجوز حملها على النكرة الموصوفة بالجملة بعدها ، والتقدير : أي شئ شاءه ، وسواء أكانتا نكرتين أم كانتا موصولتين ، فهما دالتان على العموم ، وهذه الدلالة تتناسب مع الجملة بعدهما واشتقاقها من المشيئة .

ويأتي التعريف بالإشارة في : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تعظيماً وتفخيماً للمشار إليه ، وهو الإيحاء والتكليم على الطرق الثلاث التي سبق ذكرها في الآية السابقة، والمعنى : ومثل ذلك الإيحاء والتكليم على الطرق الثلاث أوحينا إليك روحاً تحيى به القلوب الميتة ، والسماع من دون الحجاب منقول في الأخبار عن ليلة المعراج ، أو هو قوله تعالى:﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ ، والمعنى : ومثل هذا النوع من التكليم ، وهو التكليم بإرسال الرسول كلمناك . أو هو ما تضمنته هذه السورة من معانٍ ومقاصد ، أو هو المذكور بعد ﴿أَوْحَيْنَا﴾[1] .

ونحن مع من قال بأن المشار إليه هو قوله تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ ؛ لأنه أقرب مذكور ــ وإن كانت الإشارة إليه بما يشار به للبعيد إلا أنها تفيد التعظيم كما بينا ــ ولأن (الروح) مقصود به القرآن على أصح الآراء[2] ، وهو موحى إلى سيدنا محمد ﷺ بواسطة جبريل ، والمعنى ــ والله أعلم ــ ومثل هذه الطريقة من تكليم الله للأنبياء ــ وهى الوحي إليهم بواسطة ملك ــ أوحينا إليك قرآنا من أمرنا.

وسمى القرآن ﴿رُوحاً﴾ لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد

---

(١) راجع : حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٤٤٥/٧ ، وحاشية الشهاب ٣٦٩/٨ ، وروح المعاني ٥٨/٢٥ ، والتحرير والتنوير ٢٥ / ١٥١ .

(٢) راجع :جامع البيان ٢٥ / ٢٨ .

بالروح ، أو لأنه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر[1] ، والتنكير فيه يوحى بالتعظيم والتفخيم إعلاء لمكانته وإجلالا لشأنه ، ويتآذر مع هذه الدلالة طريق التعريف بالإضافة في ﴿ أَمْرِنَا ﴾ والذي جئ به تعظيماً للمضاف لإضافته إلى (نا) العظمة ، ليزداد شأن القرآن تعظيماً وتفخيماً، وتسمو منزلته إلى أعلى الغايات .

ثم يأتي التعريف باللام في : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ للعهد الذهني، ولما كان ظاهر هذا الجزء من الآية ينفى عنه ﷺ العلم بالكتاب والعلم بالإيمان قبل الإيحاء إليه ، وكان الأنبياء معصومين قبل البعثة من ارتكاب الكبائر ، فقد وجه العلماء هذا الجزء توجيهاً ينفى عنه ﷺ عدم الإيمان قبل الوحي ، ويكشف عن المعنى البعيد له ، حيث قالوا : إن المراد بالكتاب القرآن ، والمراد بالإيمان الصلاة ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[2] أي : صلاتكم ، أو يحمل الكلام على تقدير مضاف ، أى : ما كنت تدرى ما الكتاب ومن أهل الإيمان ، يعنى من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن ، أو ما كنت تدرى ذلك وأنت طفل في المهد ، أو أنه قبل النبوة لم يكن عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى ، وإنما كان عارفاً بالله تعالى ، أو أن صفات الله تعالى منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ، ومنها ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية ، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوّة[3] .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ نجد تنكير المفعول الثاني قد جاء ليفيد التعظيم والتفخيم ، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يعود للروح،وقيل : للكتاب ؛ لأنه هو الذي يعرف به الأحكام ، فشبه بالنور الذي يهتدى به ، وقيل : إنه راجع إلى

---

(١) راجع : الكشاف ٤/١٤٤ ، والتفسير الكبير ٢٧/١٩١ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

(٣) راجع : الكشاف ٤/١٤٤ ، التفسير الكبير ٢٧ / ١٩١ : ١٩٢ .

الإيمان لقربه، واستحسن الرازي ــ رحمه الله ــ القول برجوعه إلى الكتاب والإيمان،ورجح الألوسي ــ رحمة الله عليه ــ رجوعه إلى الإيمان[1] ، ونميل إلى القول برجوعه إلى الروح ؛ لأن المراد به القرآن كما أشرنا ، والهداية التي ذكرت بعد تكون بما جاء فيه من دعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فالإيمان داخل ضمن ما أوحى به في الروح، وإلى هذا ذهب أبو السعود والبقاعي رحمهما الله[2].

ويأتي التعريف بالموصولية وبالإضافة في قوله تعالى :﴿ نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ليوقف الهداية على من يشاء الله لهم الهداية من العباد .

وتأمل مجئ الصلة هنا على صيغة المضارعة ومدى مناسبتها للصيغة نفسها في الفعل ﴿ نَّهْدِي ﴾ وما يوحي به ذلك من دوام الهداية والمشيئة وشمولهما كل زمان ، ثم تأمل إضافة لفظ (عباد) إلى ضمير العظمة وما أكسبه ذلك من تعظيم وتقريب واجتباء ، والمقام يقتضيه ؛ لأنه مقام حديث عن هداية إلى صراط مستقيم ، ولا يهتدي إليه إلا من كان عبداً مخلصاً لله ، والأسلوب يبعث روح السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين استجابوا لله ورسوله .

ثم تأتي الجملة الكريمة: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لتؤكد هدايته ﷺ لمن استجاب لدعوته إلى طريق الحق المعتدل الذي لا عوج فيه ، وقد جاء ضمير المخاطب فيها موافقاً لمقام الخطاب الذي عليه الآية الكريمة، كما جاء تنكير ﴿صِرَاطٍ ﴾ ملائماً لمقام الإخبار من الله تعالى عن هداية نبيه ﷺ إليه ، وهكذا حال هذه الكلمة في القرآن الكريم ، لا تأتي نكرة موصوفة بالاستقامة إلا في مثل هذا المقام ، أعني مقام الإخبار من الله - تعالى - عن هدايته إلى صراط مستقيم

---

(١) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٩٢ .

(٢) راجع : روح المعاني ٣٨/٨ ، ونظم الدرر ٦٥٣/٦ .

أو هداية نبيه – عليه الصلاة والسلام – إليه ، فإذا ما كان المقام مقام دعاء جاء الموصوف والصفة مقترنين بلام العهد، كقوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1]، يقول ابن قيم الجوزية ــ رحمه الله ــ في الجواب عن سبب مجئ كلمة ﴿صِرَاطٍ﴾ موصوفة بالصفة ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ نكرتين في القرآن الكريم : " فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد ، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب ، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله ﷺ إليه ، ولم يكن للمخاطبين عهد به ، ولم يكن معروفاً ، لهم فلم يجيء معرفاً بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده "[2] . ولا يخفى أن التنكير هنا جاء ليفيد التعظيم ، التفخيم .

ثم يزداد التعظيم تعظيماً بإضافة هذا الصراط إلى الاسم الأعظم في الآية التالية : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى جلالة هذا الصراط بما فيه من مجامع الرحمة والنقمة ترغيباً وترهيباً[3].

وتأمل تعريف المسند إليه بالموصولية بعد هذه الإضافة : ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ،وكيف جئ بالموصول هنا بلفظ ﴿ الَّذِي ﴾ ليتناسب مع علم الجميع بالصلة : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من خلال الإشارة إليها في الآية الرابعة من السورة : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ وغيرها من آي القرآن الكريم ، فالمعنى : صراط الله الذي تعلمون أن له وحده ملك السماوات والأرض ، ومن يملك ما في السماوات وما في الأرض يملك أن يختار لعباده أقوم الطرق وأيسرها ، فالصلة هنا فيها ــ كما يرى الرازي رحمه الله

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٢) راجع : بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ١٣/٢ . ط: دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

(٣) راجع : نظم الدرر ٦٥٧/٦ .

تنبيه على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السماوات والأرض[1] .

ونضيف إلى ما ذكره الرازي ـ رحمه الله ـ أن فيها تنبيهاً على أن هذا الصراط الذي يهدى إليه محمد ﷺ هو صراط الله الذي له ملك السماوات والأرض، ومن كان كذلك اختار للناس ـ وهم بعض ملكه ـ من الطرق ما يصل بهم إلى الغاية المرجوة دون مشقة .

ثم تختتم السورة الكريمة بتعريف المسند إليه ﴿ الأُمُورُ ﴾ بلام الجنس لاستغراق كل أفراده، في جملة قرآنية شريفة ، نظمت نظماً بليغاً شريفاً ، جعلها تصل إلى قلوب المؤمنين ، فتستقبلها استقبال المتوكل المطمئن لما تحمله من وعد للمطيعين ، والآمن مما تحمله من وعيد وتهديد ترجف منه قلوب المجرمين العاصين : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ أي : كل الأمور من خلق وتدبير ، معنىً وحساً ، خفياً وجلياً ، نعلمه أولا نعلمه ، كائناً أو سيكون ، مرجعه كله إلى خالقه الأعظم الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إلى أحد سواه .

والله أعلم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه والتابعين.

---

(١) راجع : التفسير الكبير ٢٧ / ١٩٢ .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأصلى وأسلم على نبينا المبعوث بالرحمات ، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهدية واتبع سننه إلى يوم الدين .

وبعد

فقد طوفنا فيما مضى حول أسرار التعريف والتنكير في سورة الشورى ، وكانت - بحق - تطوافة ممتعة ، أخذت بألبابنا نحو تذوق البلاغة القرآنية ، فروت ظمأها ، وأشبعت سغبها ، بعد أن ظلت طوال فترتها الماضية بمنأى عن هذه البلاغة العالية ، إلا ما تقرأ منها أو تسمع .

وقد خرجنا من هذه الرحلة العطرة بعدة نتائج ، نجملها فيما يلي :

أولاً : كثرة أساليب التعريف عن أساليب التنكير في السورة الكريمة ، وربما كانت هذه ظاهرة تستوي فيها هذه السورة مع غيرها من سور القرآن الكريم، بل ربما استوت فيها جميع النصوص البليغة على اختلاف ألوانها ، وذلك يرجع إلى تنوع أساليب التعريف ، بخلاف أسلوب التنكير الذي ليس له إلا سمتٌ واحد .

ثانياً : كثرة أساليب التعريف باللام عن باقي أساليب التعريف في السورة الكريمة .

ثالثاً : تآزر بعض أساليب التعريف مع أسلوب التنكير في الدلالة على بعض المعاني ، كتآزر الإشارة معه في الدلالة على تعظيم المشار إليه وتعظيم الآيات المدركة من خلاله في قوله تعالى إشارة إلى تصريف آيات السفن في البحار : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

رابعاً : مجئ التنكير في سياق النفي على صيغة الإفراد وصيغة الجمع متساويين في الدلالة على استغراق الجنس وشمول جميع أفراده ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

وهذه ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة تفرق بين السياقات التي يأتي فيها التنكير على صيغة الإفراد ، والسياقات التي يأتي فيها على صيغة الجمع .

خامساً : ختام السورة الكريمة بتعظيم الوحي من خلال الإشارة إليه بما يشار به للبعيد ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما بدأت به .

سادساً : ختام السورة الكريمة بتقرير انفراد الله تعالى بملك السماوات والأرض من خلال التعريف بالموصولية : ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ كما بدأت به ، والملاحظ هنا مجئ اسم الموصول ﴿ الَّذِي ﴾ في آية الختام ، وعدم مجيئه في آية البدء ، وهذا مناسب لعلم المخاطبين بجملة الصلة من خلال ذكرها في صدر السورة .

وفي الختام أتوجه إلى الله عز وجل ضارعا أن يتجاوز عن زلاتي ، ويغفر لي خطيئاتي ، وأن يتقبل منى هذا العمل ، وأن يكتب له التوفيق ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطى. مطبعة البابى الحلبى . ط/ رابعة. ١٣٩٨هـ. ١٩٧٨م .

٢ـ أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية د/ صَبّاح عبيد دراز . مطبعة الأمانة. ط/ أولى ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م .

٣ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإيجاز لعز الدين بن عبد السلام تحقيق د/ محمد مصطفى بن الحاج. نشر : كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي. طرابلس. ط/ الأولى ١٤٠١هـ. ١٩٩٢م .

٤ـ الإعجاز البيانى في صيغ الألفاظ " دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن " د / محمد الأمين الخضرى . مطبعة الحسين الإسلامية . ط/ أولى ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م .

٥. الإيضاح للخطيب القزوينى ، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى . ط : دار الجيل. بيروت. ط/ ثالثة ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م .

٦. البحر المحيط لأبى حيان ، ط : دار إحياء التراث العربى. بيروت. ط/ ثانية ١٤١١هـ. ١٩٩٠م .

٧. بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية . ط: دار الفكر. بيروت. بدون تاريخ .

٨. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى د/ محمد محمد أبو موسى ، نشر : مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط/ ثانية ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م .

٩. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة. شرح / السيد أحمد صقر. ط: دار التراث. القاهرة. ط/ ثانية ١٣٩٣هـ. ١٩٧٣م .

١٠ـ التبيان في إعراب القرآن للعكبرى . نشر : مكتبة أسامة الإسلامية . القاهرة. بدون تاريخ .

١١. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، نشر :الدار التونسية للنشر. ١٩٨٤م.
١٢. التشويق في الحديث النبوى طرقه وأغراضه د/ بسيونى عبد الفتاح فيود. نشر : مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة. ط/ أولى ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م .
١٣. تفسير أبى السعود ط: دار إحياء التراث العربى. بيروت. بدون تاريخ .
١٤. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم د/ عبد العظيم المطعنى، نشر : مكتبة وهبة . ط/ أولى ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م .
١٥. تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب. ضبط الشيخ / عبد الرازق المهدى. ط: دار الكتب العلمية. بيروت. ط/ أولى ١٤١٧هـ. ١٩٩٧م .
١٦. تفسير القرآن العظيم لابن كثير . نشر : مكتبة التراث. القاهرة. بدون تاريخ .
١٧. التفسير الكبير للفخر الرازى. ط : دار الفكر. بيروت. ط/ أولى ١٤٠١هـ. ١٩٨١م .
١٨. تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضى . تحقيق د/ على محمود مقلد. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت. ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م .
١٩. جامع البيان لابن جرير الطبري . ط: دار الحديث . القاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .
٢٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ط : دار إحياء التراث العربى. بيروت. بدون تاريخ .
٢١. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي . ضبط / الشيخ عبد الرازق المهدي. ط: دار الكتب العلمية. بيروت. ط/ أولى ١٤١٧هـ. ١٩٩٧م .
٢٢. حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي . ضبط / محمد عبد القادر شاهين، ط: دار الكتب العلمية: بيروت. ط/ أولى ١٤١٩هـ. ١٩٩٩م .

٢٣- خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى . نشر : مكتبة وهبة . القاهرة ط/ خامسة . ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
٢٤. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، تحقيق / محمود محمد شاكر . ط: دار المدنى . جدة . ط/ ثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
٢٥. روح المعاني للألوسي . ط: دار إحياء التراث العربى . بيروت . بدون تاريخ .
٢٦. شروح التلخيص . نشر : دار التراث الإسلامي . بيروت . بدون تاريخ .
٢٧. صحيح البخاري . تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد . نشر : مكتبة الإيمان . المنصورة . ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .
٢٨. صحيح مسلم بشرح النووى . نشر : مكتبة الإيمان . المنصورة . بدون تاريخ .
٢٩. صفوة التفاسير للشيخ / محمد على الصابوني . ط: دار الصابوني . بدون تاريخ .
٣٠. الطب النبوي لابن قيم الجوزية . نشر : مكتبة أسامة الإسلامية . القاهرة . بدون تاريخ .
٣١. علم المعانى د/ صبَّاح عبيد دراز . مطبعة التركى . طنطا . بدون تاريخ .
٣٢. الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى . تحقيق / عماد زكى البارودى . نشر: المكتبة التوفيقية . القاهرة . بدون تاريخ .
٣٣. في ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب . ط: دار الشروق . بدون تاريخ .
٣٤- الكشاف للزمخشرى . شرح وضبط / يوسف الحمادى . نشر : مكتبة . مصر . القاهرة . بدون تاريخ .
٣٥- المثل السائر لضياء الدين بن الأثر . تحقيق الشيخ / كامل محمد عويضة . ط: دار الكتب العلمية . بيروت . ط/ أولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
٣٦- مجاز القرآن لأبى عبيدة . تعليق د/ محمد فؤاد سزكين . نشر : مكتبة

الخانجي. مصر. بدون تاريخ .

٣٧. مظاهر الطبيعة في الصحيحين " دراسة بلاغية تحليلية " رسالة دكتوراه للباحث / صلاح حبيب سليمان . كلية العربية . بإيتاي البارود ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م .

٣٨. مغنى اللبيب لابن هشام . تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد . نشر : المكتبة العصرية. بيروت ١٤١١هـ. ١٩٩١م .

٣٩. مفتاح العلوم للسكاكي . ضبط / نعيم زرزور . ط: دار الكتب العلمية . بيروت. ط/ أولى ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م .

٤٠. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني. أعده د/ محمد أحمد خلف الله. نشر : مكتبة الأنجلو المصرية. بدون تاريخ .

٤١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي . تخريج / عبد الرازق غالب المهدي. ط: دار الكتب العلمية. بيروت ط/ أولى ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م .